المرأة المسلمة

دراسة نقدية لدعاة تحرير المرأة

وبيان دور المرأة في صلاح المجتمع وفساده

تأليف
الفيلسوف والعقلاني الكبير صاحب الموسوعة الشهيرة
القرن التاسع عشر
محمد فريد وجدي

أضواء السلف

٢١٠,٤
د م م

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٣٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم (٧١)

المرأة المسلمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المرأة المسلمة

«دراسة نقدية لدعاة تحرير المرأة
وبيان دور المرأة في صلاح المجتمع وفساده»

تأليف
الفيلسوف والعقلاني الكبير صاحب الموسوعة
الشهيرة القرن التاسع عشر
محمد فريد وجدي

أضواء السلف

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

مكتبة أضواء السلف - لصاحبها علي الحربي

الرياض - شارع سعد بن أبي وقاص - بجوار بنده - ص ب ١٢١٨٩٢ - الرمز ١١٧١١

تلفون وفاكس: ٤٥٠٢٣٢١ - محمول ٠٥٥٤٩٤٣٨٥

الموزعون المعتمدون لمنشوراتنا

المملكة العربية السعودية : مؤسسة الجريسي .ت: ٤٠٢٢٥٦٤

مصر : مكتبة الإمام البخاري بالإسماعيلية ـ ت ٣٤٣٧٤٣ / ٠٦٤

باقي الدول : دار ابن حزم ـ بيروت ـ ت ٧٠١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله على إفضاله ورحمته ، والشكر له على ما حبانا من سابغ نعمته ، حمداً وشكراً يوجبان لنا الزلفى من حضرته ، ويستنزلان علينا روح قوته ، ويستدعيان لنا الزيادة من منته ، والصلاة والسلام على ترجمان نواميس حكمته ، وخلاصة إبداعه في خليقته ، مظهر نور قدسه وعظمته ، ومجلي أسرار ملكوته لحملة أمانته ، محمد عبده ورسوله وصفوته ، وعلى آله وصحابته ، وتابعيه ومؤيدي شريعته آمين .

أما بعد ، فإني بصفتي عضواً من الأمة الإسلامية رأيت أن لي حق إبداء رأيي على مسألة المرأة ، تلك المسألة التي تكاتف محبو الترقي اليوم على تمحيص حقائقها ، والوقوف على أقوم طريق لتهذيبها ، واستخرت الله تعالى في درس هذه المسألة العمرانية الهائلة درسًا مناسبًا لدرجتها من الأهمية والخطارة من سائر وجوهها ؛ ليكون ، العالم القارئ على بينة تامة مما يريد أن يعمله أو يحجم عنه .

ولعل في القراء من يظن أن المسألة أصغر من أن تحتاج إلى كتاب، ويرميني بالإسهاب أو الشرود عن موضوع البحث، ولكني

متحقق أن الأغلبية ستعطيني الحق في هذا الشرح الضافي، وتود لو أني توسعت بأكثر من هذا لعلمها بأن المسألة جديرة بدقة النظر، خليقة بأن تسمى مسألة المسائل كلها؛ لما بينها وبين سائر أصولنا الحيوية والإسلامية من العلاقة الأكيدة .

نعم إن بعض الناس لم يزل يستبعد أن تكون مسألة المرأة ذات أهمية لهذه الدرجة، حتى أنه يوم أن بدأ حضرة مؤلف تحرير المرأة في إبداء أفكاره ظلوا يتساءلون :

ألا كان يوجد أمام مثل حضرته من إجلاء النشأة الجديدة موضوع أدعى للعناية والاهتمام من هذه المسألة ؟

ألا كان البحث في تحسين حال الرجال أولى من البحث في تحسين حال النساء ؟

ولكن الواقفون على أسرار تقدم الأمم وأسباب انحطاطها (وليسوا بالقليلين في عصرنا) يعلمون جيداً أن الأمم ترقى برجالها لدرجة معلومة، ثم تنشأ فيها مقتضيات خاصة تستدعي أن تكون المرأة ذات شأن كبير في تكميل الأمة وتحسين حالها الاجتماعية، ونحن مع اعترافنا بهذه الحقيقة وإمكاننا البرهنة عليها إذا اقتضى الحال ذلك، نخالف كل قائل بلزوم احتذاء شاكلة أي أمة من الأمم الأخرى في أي شأن من شئوننا الحيوية وخصوصاً في شأن النساء؛ لأننا رأينا بعد طول

البحث والتدقيق واستقراء مجريات الأحداث التاريخية أنه يجب أن يوجد بين الأمة المقلِّدة والأمة المقلَّدة تَنَاسُب في حافظتيهما الرئيسيتين ؛ ليكون ذلك التناسب كافلاً أميناً لعدم تغلب أقواهما على أضعفهما وتحليل عناصرها، لأني لا أعرف التقليد في عرف العمران إلا إستعداد الأمم الضعيفة لقبول مؤثرات الأمم القوية والاستسلام للتحرك بحركتها ، ولا يمكن أن تؤثر تلك المؤثرات عليها أو تعمل فيها تلك الحركة عملها المطلوب إلا بإماتتها كل مقاومة تقف في سبيلها .

وحينئذ تعدو الأمة القوية على الضعيفة فتحللها تحليلاً وتمثل عناصرها بجسمها تمثيلاً ، بخلاف ما لو كان بين الحافظتين الرئيسيتين تناسب فإنه لا يوجد بينهما تنازع ما ؛ فتقبل إحداهما ما تقبله من الأخرى بدون خطر على كيانها .

والناظر في أحوالنا بنظر العمراني المدقق يجد حافظة أمتنا الرئيسية لا تشابه من كل وجه حافظة أي أمة من الأمم التي يراد أن نحتذي مُثُلُها في شئوننا الحيوية ؛ فتكون النصيحة بالتقليد بناء على ما قدمنا نصيحة بالاستحذاء للتلاشي .

تقرر في علم العمران أن الرُّقي الحقيقي للأمم لا يتأتى إلا من ذاتها ، لاسيما إذا كان لا تناسب بينها وبين الأمم المرتقية من جهة

الروابط الحيوية .

ألا ترىٰ تلك الشعوب التي فنيت في أمريكا عقب اختلاطها بمتمدني أوروبا منذ القرن الخامس عشر ؟

ما الذي أفنىٰ تلك الأمم وما الذي منعها من الاستفادة من مجاورتها للأمم المتمدنة الآخذة بمذاهب الرقي المادي غير ما ذكرناه من الأسباب الاجتماعية ؟

وهذه الممالك المتحدة الأميريكية صارت اليوم آهلة بنحو سبعين مليونًا من النفوس ، كلهم من المهاجرين إليها بعد اكتشافها ، فهم إنجليز وألمان وفرنساويون وإيطاليون ومن كل أمة أوربية ، أما أهلها الأصليون فلا يزالون متوحشين آخذين في النقص يومًا بعد يوم ، حتىٰ لم يبق منهم إلا بضع مئات من الألوف .

لم هذا ؟ . . . . أليس للسبب الذي ذكرناه آنفًا ؟

كلامي هنا خاص بالتقليد في الشئون الحيوية ، أما الأمور الصناعية فإنها لا تتأتىٰ إلا به ، ولا عار علىٰ أمة من ذلك ، كما لا خوف علىٰ كيانها من الفساد بسببه .

إذا تقرر ما مضىٰ كله فليسمح لنا المتكلمون في الشئون العمرانية أن نرجوهم في ملاحظة هذه القاعدة دائمًا في نصائحهم الاجتماعية ملاحظة دقيقة جدًا ، فإنها أمسّ شيء بحياة الأمة ، ولا يكونُ كالطبيب

يطبق علاجًا واحدًا على مرضى ذوي أمزجة متعاكسة واستعدادات متفاوتة ؛ فإن نتيجة ذلك لن تكون إلا الإهلاك بدل الإبراء لا محالة .

وهناك ملاحظة أخرى نحب أن يُراعيها حضراتهم كل المراعاة، وهي أن المدنية العصرية مهما كانت تأخذ باللب ظواهرها ، وتستوقف النظر مرائيها ، فإن فيها أمراضًا عنصرية قتالة، فليحذر عمرانيونا من الاغترار بتلك المظاهر الفتانة، وليتشجعوا على اتهام أبصارهم، وليتنزلوا فيسألوا بُناة تلك المدنية أنفسهم عن حقيقتها ؛ ليروا (ونحن الضامنون لهم) أن آسر شيء لأفكارهم منها فيه علة عضوية مهددة لكيانها بالانحلال .

ونحن بغاية الأسف نرى أن تلك المدنية تفتن الشرقيين لدرجة أنهم أصبحوا يعدُّون مقابحها التي ضج أصحابها منها كمالات، يجب علينا الأخذ بها ، وبذل النفس والنفيس في السعي إليها ، ويتصامُّون عن صيحات ذويها وأناتهم، وقد كادت تلك الصيحات والأنات لا تدع صِماخًا سليمًا بين البشر.

قضى علينا بهذا الافتتان في كل شأن من شئون تلك المدنية إلى أن صرنا لا نحسن تقليدهم حتى في الوقت الذي ندعي أننا مقلدون لهم فيه .

نرى عددًا جمًا منا يتكلم في علم العمران والفلسفة، ولكن على غير بينة منهما، أو بعبارة أصرح بغير تفريق بين أوجه تطبيق أصولهما

على أحوالنا وأحوال غيرنا من الأمم

لذلك نرى أنه إن صاح صائح من عمرانيّ تلك المدنية بلزوم مواساة علة لديهم، ردد صداه عندنا عمرانيُّونا الوطنيون، وضربوا على نفس ذلك الوتر، وربما غلوا في الشكوى كأن جسمنا وجسمهم واحد إذا اشتكى عضو لديهم تداعت له سائر أعضائنا بالحمى والسهر .

وإن نادى فيلسوفهم بلزوم تبديل بعض مدركاتهم رجَّع زجرته فيلسوفنا حرفًا بحرف، كأن مدركاتنا ومدركاتهم صبت في قالب واحد.

لهذا السبب تذهب كتاباتنا أدراج الرياح ولا تحدث من التأثير عشر ما يجب أن تحدثه ، واعتماداً على هذا الأثر يذهب بعض الناس إلى أن الأمة العربية الإسلامية أصبحت ميتة ، لا تحس بشيء ولا يفيدها دواءٌ مع أن الحقيقة غير ذلك على ما أعلم .

فإن الأمم كالأفراد من حيث العلاج ، فكما لا يؤثر في الفرد الواحد الدواء غير المناسب لمزاجه وتركيبه وسنه بل ربما اضره ، كذلك لا تؤثر النصيحة الاجتماعية في الأمة إذا كانت غير منطبقة على مرض الأمة وقابليتها .

أرانا اليوم بإزاء مسألة مهمة جدًا لها تأثير كبير على إحسان مستقبلنا ، وهو تهذيب المرأة المسلمة تهذيبًا مناسبًا لحالة العصر ولكن

ولكن كيف السبيل للوصول إليه ؟

يرىٰ بعضنا أن السبيل إليه هو إقتفاء أثر المرأة في المدنية المادية في كل حيثية، ويجد في طريق إشراب النفوس هذه الفكرة ، ولكن يجب علىٰ الباحث أن يسأل نفسه قائلاً :

هل يتأتىٰ ذلك يومًا من الأيام ؟ وهل هناك علامة تشير إلىٰ إمكان تأتيه في مستقبل قريب ؟ إذا ألقىٰ أحدنا هذا السؤال علىٰ نفسه ، واستقرأ ما بين يديه من الحوادث المهيَّأة ، رأىٰ أن الوصول إليه ضربًا من المستحيل ؛ لأنه يرىٰ بأقل تأمل أن جسم الأمة غير مستعد لقبول هذا الدواء أصلاً بما يظهره من الإباء والتعاصي ، وليس هذا الإباء والتعاصي إلا علامة عملية علىٰ أن الدواء يحتوي علىٰ مركبات لا تنطبق علىٰ مزاجه مطلقًا ، ولن تنطبق عليه إلا إذا اكتسب مزاجًا آخر ، وما فائدة الطبيب من تغيير مزاج المريض تشيُّعًا لدواء خاص ما دام مجال الطب أوسع من أن يكون قاصراً علىٰ دواء واحد، وإذا أضفت إلىٰ ذلك الإباء إحساسًا من المريض بأن هذا الدواء سيحلل أجزاءه ويبددها ، فكيف يطمع الطبيب في إشرابه له وإرغامه علىٰ اتباع شروطه؟

ثم إذا زدت علىٰ هذا كله أن المريض يسمع أنين الذين طبق عليهم هذا العلاج من قبله ، ويرىٰ بعينيه حيرة أطبائهم في كيفية تغيير تركيبه ،

فكم يكون مقدار اليأس من قبول مريضنا له ؟

هذه ملاحظات مهمة لا يجوز للعمراني إغفالها بوجه من الوجوه، كما لا يجوز لبعض الناس أن يحكموا على الأمة العربية الإسلامية بالموات وعدم التأثر ؛ لمجرد تعاصيها عن العمل بنصح الناصحين بعد ما تبين لنا أن كثيراً من هؤلاء يريدون أن يطبقوا عليها علاجًا غير مناسب لمزاجها وتركيبها بل يحسن بنا العكس ، أن نعد ذلك التعاصي دليلاً على أن فيها من سنن الفطرة الإسلامية بقية تمنعها من الاستسلام لتجارب المجربين .

بناء على هذا وعلى تعطش الأمة اليوم لمعرفة خير سبيل لتهذيب بناتها تهذيبًا ملائمًا لتركيبها .

رأينا أن نتكلم على حقيقة المرأة ، ووظيفتها ، ومواهبها ، وطريق كمالها ، مستندين على مقررات العلوم الصحيحة المجمع عليها . وأن نثبت للناس عمومًا بالتحليل العمراني الدقيق أن الحجاب ضروري لها ليس لعدم الثقة بها ، ولكن لكونه الضمانة الوحيدة لاستقلالها وحريتها بشهادة التاريخ ، ومجريات الحوادث الاجتماعية في العالم ، وأن نرد على كل شبهة قامت في سبيل هذه المدركات العلمية أو وجهت إلى مبنى المدنية الإسلامية ، وقد برهنا أن هذه المدنية هي الشكل الوحيد من كمال الاجتماع البشري الذي يتقرب منه

الأدلة من تحقيقات عمرانيّ الأم أنه لا توجد أمة في هذا العصر يجوز اتخاذ نظامها في تربية البنات منوالاً ننسج عليه .

واستخرجنا من كل هذا المجموع ما يجب أن تكون عليه المرأة في الأمة المتمدنة ، فتجلت لنا المرأة المسلمة مثال الكمال النسائي ، ونموذج الرقي الجنسي ، بشهادة فطرة الحياة البشرية والتاريخ ، مما يجب أن تقتاس بها نساء العالمين كما اقتاس رجالهم برجالها من قبل .

لهذا نرجو الله تعالى أن يكون كتابنا هذا القاعدة الأساسية لتهذيب المرأة المسلمة ، والباعث القوي للآباء على تربية بناتهم ؛ ليصح ذلك دليلاً عمليًا على صدق ما قلناه من أن شعوب الأمه العربية لا يمتنعون عن تناول الدواء متى لاح لهم أنه ملائم لتركيبهم مناسب لطبيعتهم . والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

الفصل الأول

ما هي المرأة ؟

المرأة كائن شريف خصصتها القدرة الإلهية لتكثير النوع الإنساني، فوظيفتها من هذه الحيثية سامية جداً ولا يستطيع أن يجاريها الرجل فيها بوجه من الوجوه .

وقد متعها الله تعالى لحسن أداء هذه الوظيفة بكل ما تحتاج إليه من الأعضاء، وناسب بين تركيبها وتلك الوظيفة بحيث ترى أن كل شيء فيها يدل على أن القدرة الإلهية قصرتها عليها ؛ ولذلك نرى بين جسمها وجسم الرجل من الاختلاف والتباين ما ينطق بالبداهة أنهما لم يخلقا لأن يتسابقا في مجال واحد ألبتة .

* جاء في « دائرة معارف القرن التاسع عشر » تحت لفظة امرأة ما يأتي :

«لا تختلف المرأة عن الرجل باختلاف شكل أعضاء التناسل في كليهما فقط ، نعم ، لا شك في أن تلك الأعضاء هي أكبر الاختلافات التي بينهما ، ولكن كل الأعضاء الأخرى حتى التي تظهر أنها أكثر تشابهاً فيما بينها ترينا تغايراً خاصاً » .

ثم أخذت تقارن بين كل الأعضاء مقارنة علمية مبنية على الامتحان التشريحي الدقيق حتى قالت :

« إن تركيبها الجثماني يقرب من تركيب الطفل ؛ ولذلك تراها مثله ذات حساسية حادة جداً وتتأثر بغاية السهولة بالإحساسات المختلفة كالفرح والألم والخوف ، وحيث إن هذه المؤثرات تؤثر على تصورها بدون أن تكون مصحوبة بتعقل ؛ فلذلك تراها لا تستمر لديها إلا قليلاً ومن هنا صارت المرأة معرضة لعدم الثبات » .

* وجاء في هذا المجلد نفسه : « يعلم الناس أجمع أن المرأة قد وهب الله فطرتها حبًا حاداً لكل شيء لامع ولكل ما يزينها ويزيد من جمالها ، وهذا الحب في ذاته يظهر أنه شرعي محض ؛ لأن كل شيء فيها يجعلها محتاجة للتزين وليس ذلك فقط بالنسبة لتركيبها الطبيعي ، ولكن بالنسبة لوظيفتها الاجتماعية أيضاً .

وهي الوظيفة التي لا يمكن أن تؤديها إلا بالجاذبية التي توحيها إلى النفوس ، وأنها تعرف أن قوتها تتعلق بهذه الجاذبية ، ولذلك فإن كل شيء ينفع للزينة يؤثر عندها تأثيراً شديداً لا تقاومه إلا بصعوبة ، ويوقظ لديها كل أميالها ، حتى أن أعقلهن وأطهرهن لا تستثني من هذه القاعدة » .

* وقال الفيلسوف الاشتراكي الشهير (برودون) في كتابه «ابتكار النظام» ما يأتي :

« إن وجدان المرأة أضعف من وجداننا بقدر ضعف عقلها عن عقلنا، ولأخلاقها طبيعة أخرى غير طبيعة أخلاقنا ، فالشيء الذى تحكم

عليه بالقبح أو الحسن لا يكون هو عينه ما يحكم عليه الرجل كذلك بحيث إن المرأة بالنسبة إلينا يمكن أن تعتبر غير مؤدبة ، لاحظها جيداً تر أنها إما مفرطة أو مفرّطة في جنب العدالة فإن عدم المساواة خاصية نفسها ، ولا ترى عندها الميل لتوازن الحقوق والواجبات ، وهو الميل الذي يؤلم الرجل ويسوقه إن لم يتحصل عليه إلى الدخول مع أمثاله في نزاع شديد» فالشيء الذي تحبه أكثر من كل شيء وتعبده هو الامتيازات والخصوصيات ، أما العدالة التي تسوى بين صنوف البشر فهي بالنسبة للمرأة عبء ثقيل لا تحتمله » .

هذه أقوال « دائرة معارف القرن التاسع عشر » ، وفيلسوف اشتراكي من كبار فلاسفتهم فقول (مانتجازا) الذي استشهد به حضرة مؤلف « المرأة الجديدة » لا يقام له وزن في هذا الموضوع ولا يعد إلا كما تعد أفكار الآحاد بالنسبة للإجماع لأن دوائر المعارف هي زبدة معارف العصر ومصاص أبحاثه العملية .

وغاية ما أقوله أنا : أن كل هذه النقائض التي يُلَوِّثُون بها أخلاق المرأة لم تنشأ إلا من حِيَدَانهم عن شريعة الله في تهذيبها كما سيمر بك إن شاء الله من ذات أقوالهم .

ولكن إذا اتبع البشر سنن التربية الإسلامية الحقة ، فلا يمكن أن تكون المرأة مثال الظلم والعسف ومشغوفة متلهبة على الزينة والتبرج

كما يصفونها في بلادهم ، فإن في المسلمين نساءً « مهما كان عددهم قليلاً جداً» تركزت فيهن كمالات جنسهن ونمت لديهن غرائزهن الشريفة بتأثير التقاليد الإسلامية ؛ فصرن حياة عائلاتهن ، ومنبع سعادة أولادهن، ومحل إعجاب بعولتهن ، حتى يستطيع (البسيكولوجي) العارف بعلم النفس أن يحكم بدون تردد بأنهن نموذج صادق شاهد للكمال النسائي .

إن التقاليد الإسلامية قالب مشكل على حسب فطرة النساء ، بحيث لو انصبت فيه ملكاتهن ومواهبهن وتركت نفسها بعد ذلك لكان للمرأة المسلمة شأن عجيب ، ولكانت مستثناة ولا شك من أحكام دوائر المعارف وفلاسفة الأخلاق في أوروبا مما لو شئنا لأتينا على كثير مما قرره علماؤهم في هذا القرن نفسه ، ولكنا اكتفينا بما قررته دائرة المعارف ليكون شاهداً عدلاً من قبل العلم الرسمي الإجماعي المنزه عن الخيالات أن المرأة لم تزل هناك موضوع الأحكام القاسية من الفلاسفة ، ولكيلا يستطيع الشرقي أن يصدق بسهولة ما يكتبه بعض المتنصرين لهن في أوروبا من الرجال بقصد الشهرة وإستلفات النظر ولأغراض أخرى .

وقد تكلم عنهم الأستاذ الكبير (أجوست كونت) مؤسس الفلسفة الحسية وعلم العمران ، فوصفهم في كتابه المسمى « النظام السياسي على حسب الفلسفة الحسية » بأنهم رجال ذوو أهواء ، حتى أنه نسبهم

إلى الهوس وفساد القلب فقال بالحرف الواحد :

« كل أدوار الانتقالات الاجتماعية قد ولدت كما في زماننا هذا ضلالات خيالية على حالة النساء الاجتماعية ، ولكن القانون الطبيعي الذي يخصص الجنس المحب (النساء) للحياة المنزلية لم يتغير أبداً تغيراً خطراً، فإن هذا القانون صحيح ومحقق لدرجة أنه ساد من تلقاء نفسه حتى مع بقاء السفسطات المضادة له بدون دحض » .

ثم قال : « ومهما كان حِرمانُنا اليوم من أسس اجتماعية حقيقية (الرجل يتكلم بالحق) أكثر مما كنا في وقت الانتقال من الحالة الوثنية إلى الحالة التوحيدية فإن العقل الإنساني في مقابل ذلك والإحساسات القلبية صارت أكثر كمالاً وشعوراً ، فإن النساء في ذلك الزمان كن في هبوط لا يسمح لهن أن يدحضن (كما يجب عليهن ولو بسكوتهن) الضلالات الدكتورية التي جاء بها الذين يزعمون الدفاع عنهن أولئك الذين كانوا يحاربون في الواقع ونفس الأمر العقل نفسه ولكن بالنسبة للنساء الحاليات فإن الحرية السعيدة عند غربياتهن[1] تسمح لهن بإظهار كراهتهن النهائية التي تكفي عند عدم وجود الردود العلمية لمنع انتشار هذا الهذر العقلي الذي أوحته القلوب المفسدة.

---

(١) يريد (أجوست) الحرية المعقولة بعد ذلك الاستعباد الهائل لا تلك الحرية المطلقة وسيمر بك من أقوال هذا الفيلسوف أن المرأة لا يمكنها التخلص من سيطرة الرجل .

فإن إحساس المرأة اليوم هو الذي يحتوي وحده على المصائب العملية التي يجب أن تكون هي التي ولدت هذه الأميال الفوضوية ، فإن البطالة تزيد هذا الخطر خطراً عند طبقاتنا العالية التي فيها يؤثر الغنى تأثيراً سيئاً للغاية على حالة النساء الأخلاقية »

فليحذر إخواننا الشرقيون من تصديق بعض قصصي أوروبا ، فإنهم إنما يكتبون أمثال هذه الخيالات المفسدة ؛ لتروج لدى النساء ليكتسبوا ميلهن وأولئك المسكينات لا يعلمن أن نصائح أولئك الكتاب تهلكهن إهلاكًا وتجعلهن أشد أسراً . كما سيمر بك إن شاء الله من أقوال علماء تلك المدنية .

الفصل الثانى

ما هى وظيفة المرأة الطبيعية ؟

للمرأة في الحياة الإنسانية وظيفة سامية للغاية ، وهي حفظ النوع البشري واستدامته مما لا يتأتى للرجل أن يشاركها فيه ؛ لأنه يتعلق بشكل التركيب الجسمي الأمر الذي لا يمكن التحصل عليه بالتصنع ولا التقليد .

هذه الوظيفة الخاصة بالمرأة لها جملة أدوار تتعاقب عليها ولكل دور منها لوازم لا تزايلها ، يجب الإلمام بها لندرك أهمية هذه الوظيفة وخطارتها .

فهي تستلزم الحمل والوضع والإرضاع والتربية ، ومن يتأمل في هذا الوجود البديع تأملاً بسيطًا يتجلى له أن لكل كائن فيه وظيفة يتوقف كماله الشخصي والنوعي على حسن أدائها ، وقد يحصل أن كائنًا من الكائنات يخرج عن حدود وظيفته، ولكن يبعد عن الكمال بقدر بعده عنها ويؤثر على مجموع نوعه على نسبة ذلك ، وحينئذ يجب أن يعتبر ذلك التحول منه عن وظيفته الخاصة فسادًا يستدعي الملافاة بالطرق الحكمية .

إذا تقرر ذلك لزمنا أن ندرس ما هي حدود وظيفة المرأة لنعرف

مـا هو كمالها بحسن تأديتها لها وما هو نقصها بخروجها عنها .

قلنا أن وظيفـة المرأة تستلزم أربعة أدوار : حمل ، ووضع ، وإرضاع ، وتربية ، ولكن ماذا يفيد هذا الإجمال بالنسبة لهذه الأحوال الأربع التي وضع العلماء في شرحها قديمًا وحديثًا من المؤلفات ما لا تكفي عدة صفحات لسرد أساميها فضلاً عن التعمق فيها ؟

فمن يبلغ عني تلك المرأة الحامل التي تحشر نفسها في زمرة المضربين عن العمل بأنها إنما تعرض نفسها باستهدافها للوكز والدفع إلى أشد الأخطار على حياتها وحياة جنينها !!!

ومن يبلغ عني تلك المرضع التي تصيح وتنفعل انتصاراً لرأيها السياسي !!! إنها بذلك الانفعال النفسي[1] تفسد لبنها فتسقي ولدها منه سمًا زعافًا ربما قضى على حياته القضاء المبرم !!!

ومن يبلغ عني تلك الأم المحامية التي تقضي طول نهارها في المدافعة عن مجرم لتخفف ويلات العقاب عنه ومعظم ليلها في جمع المستندات وتنقيب شروح الشريعة !!!

إنها بإهمالها التعمق في علم التربية تسيءُ آداب ولدها من حيث تظنُّ أنها تحسنها فيشب شريراً وقحًا ثم لا تستطيع أن تبرئه عند

(١) راجع كتاب : « الصحة النفسية للجنين » .

المحاكمة بفنونها الجدلية !!!

أليست هذه الأمور كلها تمرداً على سنن الفطرة ، وعصياناً لأحكام مكونها جل جلاله ؟

أليست إهمالاً من المرأة لشئون وظيفتها الطبيعية التي يتوقف عليها كمالها وسعادتها ، واشتغالاً بما يضرها هي ومجتمعها لإبعاده إياها عن كمالها الذي لا يتم كمال المجتمع إلا به ؟

نحن نقول هذا الكلام ، وسترى في فصولنا الآتية تلك الشكاوى المرة التي يبديها عمرانيو ذلك العالم المتمدن من جراء اشتغال النساء بأشغال الرجال ، والفساد الذي جررنه على كيان تلك المدنية ، هنا يرد علينا سؤال وهو :

هل تستطيع المرأة أن تبلغ الكمال في وظيفتها الخاصة مع مشاركتها للرجل في وظيفته الخارجية ؟

نقول : أما في مدة التسعة أشهر من الحمل فلا تستطيع المرأة إحسان عمل من الأعمال مطلقاً بل هي لا تؤدي وظيفتها المنزلية إلا بمشقة وخطرا ؛ لأن جنينها في تلك المدة يدخل في أدوار مختلفة ، ولكل دور منها آثار تبدو عليها وأعراض لا تفترق عن أعراض الأمراض في شيء ؛ لأنها نتيجة تفاعلات باطنية تؤثر على مجموع البنية تأثيراً يختلف باختلاف طبيعة الجسم نفسه من قوة وضعف .

لهذا الدور من أدوار حياة المرأة شرائط صحية كثيرة يجب على الحامل ملاحظتها بالدقة وتطبيقها على سائر أطوار الحمل المختلفة لتخرج منه هي وولدها سليمين وإلا فتكون قد عرضت نفسها لأخطار قد تذهب بحياة فلذة كبدها وحياتها دفعة واحدة .

يقول الأطباء : ولما كانت مدة الحمل في الحقيقة حالة مرضية فيجب على أهل الحامل أن يعاملوها بمزيد الرعاية مع إبعادهم عنها كل ما يكدر أفكارها أو يعارض مزاجها ؛ لتأثير ذلك كله على صحتها وصحة جنينها ، وأن يحتملوا ما يبدو منها من حدة الخلق وشدة الانفعال ؛ لأنها تكون مكرهة على ذلك من جراء الاضطراب العصبي الذي يلازم تلك الحالة .

أما دور الوضع : فهو دور شديد الهول ، كثير المخاوف ، تتعرض فيه الحامل لآلام حادة ، وتقع بعده في مرض حقيقي ، وضعف شديد، وقد أفرد الأطباء لهذا الدور كتبًا ضخمة ملأى بما يجب مراعاته نحو الوالدة من القواعد الصحية التي تكفل نجاتها من الحميات الكثيرة الأنواع التي تتهددها في ذلك الحين .

أما دور الإرضاع : فهو وإن كان أقل خطرًا من الدورين السابقين بالنسبة للأم إلا أنه أشد خطرًا بالنسبة للطفل فإن له قواعد مخصوصة وقانونًا يجب مراعاته تمام المراعاة ؛ لأن إسراف الأم في أكلة متبلة

ربما جرت على طفلها نزلة معدية أوردته حتفه ، أو ربما أكثرت من إرضاعه بغير تدبير فسببت لديه تخمة تنكد عليها حياتها وحياة أهل بيتها أجمعين .

وليس الأمر قاصراً على هذا ، فإن الطفل يحتاج من يوم ولادته إلى يوم فطمه لملاحظة شروط جمة بالنسبة لتغذيته وكسوته وتنظيفه ، لو أهمل منها واحد أثر على المولود تأثيراً سيئًا ، ولو كان في بلادنا إحصائيات كاملة لعلمنا منها أن أكثر الأطفال يموتون من جهل الأمهات بشروط التربية الطِّفلية .

أما وظيفة التربية : فهي من أقدس الوظائف وأدعاها للعناية والاهتمام .

فإن الطفل عندما يخرج من ذلك العالم الغيبي ، تكون مرآة نفسه خالية من جميع الصور ، مبرأة من جميع الشوائب الأخلاقية والمعائب النفسية ، وقابلة لأن ترسم كل صورة عرضت إليها على علاتها ولكل من هذه الصور لوازم وآثار تؤثر على وجدان الطفل عندما يشب وتسوقه رغم أنفه إلى الوجهة التي تهيئها له .

فإما الجبن أو الشجاعة ، وإما الكرم أو البخل ، وإما البشاشة أو العبوس ، إلى غير ذلك من الفضائل والرذائل في الإنسان التي ما هي إلا آثار تلك الصور التي ارتسمت في مخه وهو خالي الذهن من كل

شيء ، فإذا كان الناس قد اعتادوا على أن ينظروا إلى من ورث مالاً فأساء التصرف فيه بعين الآسف المتلهب ؛ فكان بالأولى يجب عليهم أن ينظروا بتلك العين إلى الأم الجاهلة بشرائط تلك التربية . بل شتان بين كنز يبذر وبين نفس كريمة تقتل قتلاً ، أدبيًا فيشب صاحبها رغم أنفه جائحة على بني جلدته ومصيبة على إخوان ملته . أو بالأقل غير نافع لقومه وعشيرته مع أنه لو كان ممن أسعده الحظ فأحسنت أمه تربية مواهبه وتنمية ملكاته ، لشب وهو واحد من أولئك الأفراد الذين تسعد بهم الأمم، وترقى بفهمهم إلى أوج الجلال والعظم .

فهل يأتي على الناس زمان يدركون فيه هذه الحقيقة الجليلة ، فيلقون على الأمهات هذه المسئولية العظمى ؟

وهل يأتي عليهم حين يعلمون فيه أن فن التربية ليس من الفنون البسيطة التي تتعلم في شهر أو شهرين ، بل تقتضي سنينًا طويلة ؛ لأنها تتناول معظم العلوم النفسية ، وكيفية تربية الملكات ومعالجتها بالطرق الحكمية ؟

وهل يأتي عليهم وقت يعرفون فيه أن هذه العلوم لاتساع موادها وتشعب فروعها لا تدع محلاً من المخ لحساب المثلثات وقضايا الرياضة العالية وكيفية فصل الكلور عن أوكسجينه إلا على قدر ما يقيم أود الفكر ويصقل مرآة البصيرة ؟

هذه هي وظيفة المرأة ، وهذا هو كمالها ، فيجب علينا أن نعمل كل ما يمكننا لتتقرب المرأة من كمالها وتدخل إلى حدود وظيفتها ، وأن نعتبر أن كل ما يبعدها عن هذه الوظيفة داء اجتماعي يجب التألب على ملاشاته ، أو بذل الجهد في حصره في محله ، وأن نصرح على رءوس الأشهاد ؛ بأن كل امرأة مهما قيل إنها مكتشفة لنجم ، أو بحّاثة في الميكروبات ، أو معلمة لعلم التشريح ، أو غير ذلك ناقصة وعاصية لسنن الفطرة وخارجة عن حدود وظيفتها ، وأن نكرّه النساء من احتذاء مثالها ، لا أن نضرب بها الأمثال ونتخذها مثالاً على الكمال .

* * *

الفصل الثالث

هل المرأة تساوي الرجل جسميا ومعنويا ؟

نحن لما كنا نعلم أن سعي المرأة في الغرب وراء نوال استقلالها المطلق من سلطة الرجل هو سبب كل ذلك الإفراط الذي سندرس بعض آثاره المحزنة في هذا الكتاب وأن هذه النزغة ربما انتقلت إلى الشرق بطريق العدوى تحت تأثير التعاليم المضرة . . . رأينا أن نقيم الحجة في هذا الفصل على أن ذلك الاستقلال المزعوم ضرب من ضروب المستحيلات الطبيعية ، وأن الساعي في تحقيقه كالساعي في تغيير أوضاع سنن الكون ، وهو مسعى يساوره الإخفاق من كل جانب فنقول :

أثبت علم التشريح أن الرجل أقوى من المرأة جسمًا من سائر الحيثيات وبدرجة محسوسة جدًا حتى ذهب بعضهم إلى أن المرأة الحالية ليست أنثى الرجل الحالي ، بل هي أنثى كائن آخر يشبهها في تركيبها وضعفها ، وأن ذلك الكائن قد انقرض بمزاحمة الإنسان له في الحياة فتغلب على أنثاه التي من نسلها المرأة الحالية (انظر دائرة المعارف الكبرى تحت عنوان مرأة) .

هذا الفرض ، وإن كان تطرفًا من بعض العلماء إلا أنه يدلنا على

عظم الفرق بين هذين الكائنين كما نبينه تفصيلاً ، هذا الضعف لا نتخذه نحن دليلاً على حقارة قدر المرأة ، ولكن عنوانًا على حكمة ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] فإنه جلت قدرته كما قضى على المرأة بأداء وظيفة خاصة لم يهبها إلا ما يلائمها من الاستعداد والقوى كما يقول جل جلاله : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٤٩] .

أما ذلك الفرق بين الرجل والمرأة فهو : أثبت العلم بالتجربة أن متوسط طول الرجل يزيد عن متوسط طول المرأة باثني عشر سنتيمتراً ، هذه الزيادة تشاهد عند المتوحشين ، كما هي عند المتمدنين وعند الأطفال من كلا النوعين أيضًا .

وأما من جهة ثقل الجسم : فإن متوسطه عند الرجل سبعة وأربعون كيلو : وأما عند المرأة فلا يزيد عن اثنين وأربعين ونصف .

وأما من حيث المجموع العضلي : فإنه عند المرأة أقل كمالاً منه عند الرجل بكثير .

* قال الدكتور (دوفاريني) في « دائرة المعارف الكبيرة » عند ذكره هذا المجموع : « **إنه أقل حجمًا وأضعف منه عند الرجل بقدر الثلث وحركاته أقل سرعة وأقل ضبطًا** » .

أما القلب ، وهو مركز القوة الحيوية : فإنه عندالمرأة أصغر وأخف بمقدار (٦٠ جرامًا) في المتوسط .

وأما الجهاز التنفسي : فإنه لدى الرجل أقوى منه لدى المرأة ؛ فقد ثبت أن الرجل يحرق في الساعة (١١ جرامًا) تقريبًا من الكربون ، وأما المرأة فلا تحرق منه إلا (٦) وكسرًا ، ولذلك فحرارة المرأة أقل من حرارة الرجل .

أما الحواس الخمس : فقد أثبت الأستاذان (نيكولس ، وبيليه) أنها أضعف عند المرأة منها عند الرجل ، فهي لا تستطيع أن تدرك رائحة عطر الليمون على بعد مخصوص إلا إذا كانت ضعف المقدار الذي يدركه الرجل فيه .

وشوهد بالامتحان أن المرأة لا تدرك رائحة حمض البروسيك المخفف إلا على نسبة $\frac{١}{٢٠٠٠}$، أما الرجل فيدركها على نسبة $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠}$.

أما حاسة الذوق والسمع : فإن الرجل أدق من المرأة فيها بكثير ، ويكفيك دليلاً على ذلك أن أهل الخبرة في تمييز الطعوم ونقد الأصوات كلهم من الرجال كما جاء في « دائرة المعارف الكبيرة » .

أما حاسة اللمس : فقد شوهد أن الرجل أدق من المرأة فيها ، وقد برهن الأستاذان (لومبروزو ، وسيرجي) على قلة إحساسها به .

* قال (لومبروزو) : **« وهذا من حسن حظ النوع الإنساني ، فإن المرأة معرضة لكثير من الآلام ، كالحمل والوضع وغيرهما ، ولو كانت حساسة كالرجل لما استطاعت تحمل ذلك كله »** .

يرىٰ مما مر كله أن المرأة بضعفها أكثر تعرضًا لمصائب الحياة من الرجل ، وأشد استهدافًا لأنواع الأمراض ، منه مما يدل دلالة صريحة أن حياتها يجب أن تكون منزلية محضة لا خارجية .

* قال العلامة (تروسيه) في «دائرة معارفه» : « **إنه بالنسبة لضعف المرأة ونمو مجموعها العصبي ، نرى مزاجها أكثر تهيجًا من مزاج الرجل ، وتركيبها أقل مقاومة من تركيبه ، فإن تأديتها لوظائفها من الحمل والأمومة والإرضاع يسبب لديها أحوالاً مرضية قليلة أو كثيرة الخطر** » .

هنا يمكن أن يقول قائل : إن ذلك الضعف التشريحي الذي أثبته نتيجة ضغط الرجل علىٰ حريتها وإجبارها علىٰ ملازمة ما يفسد صحتها .

نقول : هب أن ذلك صحيح ، فما سبب رخامة[1] صوتها ؟ علىٰ أن من الثابت علميًا أن سكان البلاد الحارة من المتوحشين يكلفون نساءَهم بأعمال الحراثة والزراعة ، وغيرهما من أول الخلقة إلىٰ الآن ، ومع ذلك فإن تلك الفروق تشاهد بعينها بين رجالهم ونسائهم .

* قال الأستاذ (دوفاريني) في« دائرة المعارف الكبيرة» : « **إن هذا الفرق يشاهد عند البتاجونيين (بعض متوحشي أمريكا) كما يشاهد عند سكان باريس وعليه فلا سبيل للجدل في هذه القضية** » .

أما من جهة أفضلية الرجل علىٰ المرأة في مركز الإدراك ؛ فمما لا

(١) أي نعومته .

مشاحة فيه ، حيث أثبتتها (البسيكولوجيا) (علم النفس بالتجربة) فقد شوهد أنه يوجد فارق جسيم بين مخي الرجل والمرأة مادة وشكلاً .

أثبت العلم أن مخ الرجل يزيد عن مخ المرأة بمقدار مائة جرام في المتوسط .

ولا يعترض علينا بأن هذا الفرق منشأه الاختلاف بين حجمي الجسمين ، لأنه شوهد أن نسبة مخ الرجل إلى جسمه هي كنسبة $\frac{١}{٤٤}$ وأما نسبة مخ المرأة إلى جسمها فكنسبة $\frac{١}{٤٠}$ وفرق بين النسبتين .

وغير هذا فإن مخ المرأة أقل ثنيانًا ، وتلافيفه أقل نظامًا .

وهذه المشاهدة يعدها العلماء من أكبر مميزات الجنسين ، وكذلك يوجد اختلاف بين المخين في الجوهر السنجابي الذي هو النقطة المدركة من المخ ، فهي عند النساء أقل منها عند الرجال بدرجة محسوسة جدًا ، ولكن في مقابلة ذلك نجد مراكز الإحساس والتهيج عند المرأة أحسن تركيبًا منها عند الرجل .

* قال الأستاذ (دوفاريني) في « دائرة المعارف الكبرى » :

« وهذا مطابق لمميزات الجنسين من الحيثية النفسية ، فإن الرجل أكثر ذكاء وإدراكًا ، وأما المرأة فأكثر انفعالاً وتهيجًا » .

لا شك أن كل هذه الاختلافات المخية تدلنا بأوضح برهان على أن مركز الإدراك في الرجل أرقى منه في المرأة ، فيكون هو أفضل منها إدراكًا .

ولا يمكن أن يعترض علينا بأن ذلك نتيجة حرمان المرأة من التهذيب طول تلك القرون الخالية ، وأنه بمرور الزمن قد ينمو مخها حتى يساوي مخ

الرجل ؛ لأن تلك الفروق تشاهد بعينها في الشعوب العريقة في الوحشية التي لا حظ لكلا الجنسين فيها من التعلم » فلو كان السبب الذي يرقي مخ الرجل عن مخ المرأة هو التعلم ، فلماذا تشاهد تلك الفروق بنفسها عندهما وهما على حالة السذاجة الطبيعية الأولى التي لا يفضل أحدهما الآخر في مزية عقلية ما ؟!

ولكن ليهدأ أنصار المدنية المادية عندنا ، فقد أثبت القوم أنهم كلما ازدادوا تمدنًا ، ازداد الاختلاف بين الرجل والمرأة .

فقد جاء في « دائرة المعارف الكبيرة » ما نصه :

« الاختلاف الطبيعي يزداد وضوحًا بازدياد التمدن ، بحيث أصبح الفرق بين الأبيض والبيضاء أكبر بكثير من الفرق بين الأسود والسوداء» .

ولا يستغربن القارئ من تزايد هذا الفارق بين الرجل والمرأة في ذلك الشكل من المدنية ، فإن لسان سنن الكون تصيح بالذكر والأنثى في تلك البلاد :

أن احذرا التمرد على قوانين الحكمة الإلهية وعصيان قواعدها غير القابلة للتبدل مهما مَوَّهْتُمَا على أنفسكما وعلى الناس فقد عصاها قبلكما أمم بأسرها ، فذهبت في تيار الفناء ولم تغن قوتها عنها فتيلاً .

هذه سنن الكون ، لا تنذر بلسان وشفتين ولكن تنذر بأحداثها وأحوالها ، فإن تزايد الفرق بين المرأة والرجل ، علامة عملية على أن

المرأة ليست في الدائرة التي رسمها الله تعالىٰ لأن تشغلها ، فلتنتبه المرأة من رقدتها ، وليتنبه محبو الرقي الإنساني ، فيدخلوا المرأة إلىٰ حدودها الطبيعية بالطرق الحكيمة .

ولتحذر المرأة المسلمة من السقوط في هذه الهاوية المريعة ، فإن طلبها للاستقلال الموهوم سيجرها (لا سمح الله) إلىٰ زيادة الفرق بينها وبين الرجل، وهو عنوان تسجيل الشقاء الأبدي عليها بدل الحرية ، ولتعلم أن تزايد هذا الفارق في أخواتها في العالم المتمدن لم يجرّه إليهن إلا تشبثهن بمباراة الرجل في حياته الخارجية ، وهو مجال سَبَقَهَا ، ولم يزل يسبقها الرجل في كل شأن فيه مع ما كن عليه من الفارق الأصلي المعلوم ، فما بالك لو تزايد هذا الفارق إلىٰ أكثر من ذلك ؟! .

وقد حسب (الاقتصاديون) ما ينبني علىٰ الفارق الطبيعي الأصلي بين الرجل والمرأة من الامتيازات للأول دون الثانية بقواعد رياضية حيث أثبت الفيلسوف (برودون) في كتابه « ابتكار النظام » أن نسبة مجموع قوىٰ الرجل إلىٰ قوىٰ المرأة تساوي ثلاثة إلىٰ اثنين .

* ثم قال بالحرف الواحد :

« وحيث إن كل جمعية مكونة من اتحاد هذه الثلاثة عناصر وهي : العمل والعلم والعداله ، فيكون القدر الحقيقي للرجل والمرأة هو كنسبة ٣ في ٣ في ٣ إلى ٢ في ٢ في ٢ ، أي كنسبة ٢٧ إلى ٨ ، وبهذه الشروط

لا يمكن أن توازن قوى المرأة قوى الرجل ، فخضوعها له أمر لا مناص منه، فهي أمام الطبيعة والعدالة لا توازي ثلثه ، فيكون التحرير الذي يطلبه بعضهم باسمهن هو تسجيل الشقاء عليهن تسجيلاً شرعيًا ، إن لم أقل تسجيل العبودية » .

هذا قول اقتصادي خبير الأحوال في بلاده وعلم موضع القوة والضعف منها ، فلا يليق أن نضرب بقوله عرض الحائط ، ولكنه لم يبخس حق المرأة من جهة أُخرىٰ حيث قال :

« ولما كانت موهبة المرأة معنوية محضة ، فقيمتها لا تقدر من هذه الحيثية وتسبق الرجل فيها لا محالة ، ولكن على شرط أن يكون هو سائقها، وهي لأجل أن تحفظ لنفسها هذه الهبة التي لا تثمن والتي هي ليست خاصية ثابتة فيها بل هي صفة أو شكل أو حالة ؛ يلزمها أن ترضخ لقانون السيطرة الزوجية، فإن المساواة بجعلها إياها مكروهة قبيحة ، تكون حالّة لعقدة الزوجية ، ومميتة للحب ومهلكة للنوع البشري » .

نعم ، لم تخلق المرأة لتستعبد ، فيجب عليها أن تجاهد لنوال حريتها المعتدلة ، ولكن بأي سلاح ؟ بسلاح وهبه الله لها وليس من جنس سلاحنا ، وليس في مكنْتنَا أن نقابلها بمثله ، ولكنها بغاية الأسف غافلة عنه ولا تفكر فيه .

وليس ذلك السلاح إلا معرفتها خطارة وظيفتها ، وسمو مقام الهبة التي منحتها ، والعمل على حسن التصرف بها .

هذا السلاح يجعلها موضوع التجلة والاحترام ، ومحل الإجلال والإعظام ، لأنها تعتبر عندئذ مليكة لأزمة الإحساسات ، وسلطانة على منازع الطباع ، فهي إن شاءت جعلت الحكومة ملوكية ، وإن شاءت قلبتها جمهورية ، وإن شاءت عملتها اشتراكية ، وما ذلك إلا بتربية الأطفال على حسب أميالها وسوقها إياهم إلى الغاية التي تتمناها ، فتهابها الحكومات ، ويخشى سطوتها الملوك في عروشهم السامقات ، ويعدونها مزعزعة إن لم ترضَ عنهم الأمهات ، وتستطيع وقتها أن تقتاد الرجل بزمام من حديد لينتقم منه على ما اجترحت يداه في حقها ، حيث كان يتركها بموهات أفكاره في الحرية تعمل بجسمها لتنال قوتها الضروري ، هربًا من أنياب الموت ، إلا أن - الخالق تقدست صفاته - قد احتاط لهذا الأمر ، فوهبها من رقة الإحساس والشفقة المتناهية والعواطف الرقيقة ، ما يؤهلها لمنزلتها هذه من السيطرة وقيادة الأميال العامة ، فهي لا تأمر إلا بخير ، ولا تَبِعَت إلا لمرحمة .

هذا هو سلاح المرأة الذي لو علمته لسعت إليه سعيًا حثيثًا ، ولرمت بقول كل من يريد أن يلفتها عنه عرض الحائط ، ولاتهمته بأنه يحسد مستقبلها ، فيريد أن يوجهها إلى ما يزيدها أسرًا ، ويجعل عيشها مرًّا .

هل ترضى المرأة عندما تعرف كُنْهَ مستقبلها هذا أن ترفع الحجاب ؟

كلا ، إنها سترىٰ بالتحليلات العمرانية أن ذلك يسوقها إلىٰ ما يزيد استعبادها ، وهو أمر يعطلها ، بل يصدها عن بلوغ شأوها المنتظر .

ثم هل تميل لأن تجاري الرجال في الأشغال ؟ كلا ، لأن ذلك يسلخها (كما ستراه مثبوتًا بالتجارب اليومية) عن عرش ملكها (عائلتها) سلخًا ، فلا تتوصل إلىٰ مركزها المستقبل الذي فيه سعادتها وحريتها .

إذن ماذا تعمل ؟ تتعلم كيف تكون أمًّا وتدرس قوانين وظائفها ، وتدأب علىٰ مطالعة أسرار التربية وعجائبها التي بها يصير الجبان شجاعًا ، والبخيل كريمًا . . . إلخ .

وتترك التبرج والتباهي بتعلم اللغات الأجنبية ، ولا تسرف في الزخارف ، فإن الانهماك علىٰ كل ذلك يبعدها عن كمالها الذي فيه سر مجدها ، ويجرها تدريجًا إلىٰ ما فيه عبوديتها ورقها .

ولا يغرها ما تراه من انطلاق النساء في غير قومها بغير حجاب ، ولا تستنتج من تطوافهن مع أزواجهن في الشوارع أنهن أقرب منها إلىٰ ذلك المستقبل السامي .

كلا ، فقد جرهن ذلك الانطلاق إلىٰ طريق غير طريق سعادتهن ، وقد أخذ قومهن في التشكي من حالتهن كما نقلنا عن أعاظمهم كل ذلك تفصيلاً .

تلك هي المرأة الكاملة ، وتلك هي حريتها الحقيقية ، وذلك هو سلاحها في معترك هذه الحياة ، فلتتخذ المسلمات هذا المثال نصب أعينهن وليعملن علىٰ التقرب منه شيئًا فشيئًا ، حتىٰ ينلن سعادتهن وينلننا سعادتنا المرتبطة بهن ، والله يهدي من يشاء إلىٰ سواء السبيل .

الفصل الرابع

هل تتأتى حرية المرأة

على الصفة التي يريدونها لها ؟ ؟ ؟

نحن بعد أن أثبتنا علميًا أن المرأة لا تستطيع أن تلحق شأو الرجل في بسطتي : الجسم ، والإدراك أبداً مهما ناظرته فيهما ، لا لكون الخلق قضى عليها بالانحطاط ، ولكن لكون وظيفتها التي خلقت لتؤديها في هذا العالم لا تقتضي أكثر مما متعت به من القوى ، ولكونه تعالى لم يعلق سلاحها في هذا المعترك على قوة عضلها ، بل على تلك الموهبة السامية التي تكلمنا عليها في فصلنا المتقدم ، فهي مناط سعادتها وسلم مجدها .

وقد برهنّا في الفصل المتقدم أن نمو تلك الخصيصة المعنوية فيها يتعلق برضوخها للرجل .

وبناءً على هذا ، وجب عليها (لمحض صالحها) أن تكون تحت حمايته مباشرة ، وهي إن لم ترضخ له عن طيب خاطر فرضوخها له سيكون اضطراريًا ، لأنها لا تستطيع مزاحمته في أي شأن من شئون الحياة الخارجية ؛ لأن الغلبة في ذلك المعترك الهائل تقتضي (قبل كل شيء) قوة العضل ، وتحمل الجسم لمتاعب المحاولات وأوصاب

التأثيرات المختلفة ، وأكبر دليل على ذلك تحملها لنير الرجل من أول نشأتها إلى اليوم ، ومهما حاولت الفلسفة الخيالية بحسن أساليبها في كسر شوكة سنن الفطرة ، التي مقتضاها أن القوي يغلب الضعيف ويأسره ، فلن يكون نصيبها إلا مثل نصيبها في طلبها تحرير الأم الضعيفة من مخالب الأم القوية ، أو مطالبة الرجل القوي لينزل إلى حضيض أخيه الضعيف في كل حيثية إذ ليست السنن التي خلقتها الحكمة الإلهية لتسود على أعمال البشر قابلة لأن تبطل من عملها يومًا من الأيام رضوخًا لخيالات بعض أفراد النوع الإنساني ممن يودون أن يكون شكل الوجود على حسب ما يتخيلونه ، لا على حسب ما هو عليه وما يجب أن يكون عليه دائمًا .

إن الخالق الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، قد وضع الكون على أسلوب منتظم فلا يجوز لنا التحكم على إحكامه والسعي في إبادتها بالشقاشق ، فإن ذلك المسعى (فضلاً عن أنه يذهب أدراج الرياح) يمكن أن يعتبر تمردًا على أحكام الفطرة الإلهية المقدسة ، وعصيانًا لواضعها .

ولو كنا ممن يغرّه الظاهر المبرقش ، وتستوقفه القشور دون النفوذ إلى حقيقة الواقع لقلنا إن المرأة في المدنية الغربية ، قد كادت تخرج من سيطرة الرجل ، مع أن الحال على خلاف ما يتوهم الكثيرون .

فإن سنن الكون : القوي يغلب الضعيف ، ليس بأقل عملاً في بلاد تلك المدنية منه في أي بلد أخرى ، ولكن مظاهره هي التي أخذت أشكالاً أخرى فقط غير أشكالها الأصلية ، على أنا نقول وسنقيم الأدلة المحسوسة أن في كل جهة يميل الفكر الإنساني إلى ستر حقائق الواقع بستار من التمويه وحاجز من المواربة .

فإن السنن الإلهية في مثل هذا الواقع تقضي بتشديد الله سبحانه وتعالى الوطأة عليها والتساعد بسواها من عوامل وأسباب أخرى إرغامًا للمتظاهرين بالتغلب عليها ، فتكون أمثال تلك الأم في مظاهرها غير ما هي عليه في حقائقها ، وإنك لترى هذه الحوادث في كل بلد سادت عليها تلك التمويهات الواهية ، انظر إلى تلك الأم التي تحارب الأمراض بوسائل تحار في وصفها العقول ، وبعقاقير تكاد (على زعمهم) تطيل الحياة وتحفظ قوة الشبيبة ، تراها أشد خضوعًا للأمراض والمصائب الجثمانية من أي أمة متوحشة ليس لديها من وسائل الدفاع شيء يقر عليه عقل العاقل .

لم ذلك ؟ ذلك لأن الأم المتوحشة أقرب إلى الله وإلى البساطة الأولى ، وسذاجة الفطرة الأصلية من هذه الأم المدعية فهي خاضعة مباشرة لقوانين الفطرة .

وأما تلك ، فقد خرجت عنها بما أوتيته من العلم ، فجرت في

ميادين الحياة منقادة لأهوائها ، وأحاطت نفسها من الوسائل ما رجت معه أن تكون بمعزل عن أحكام الخليقة ، فما عملت في الحقيقة إلا أن دفعت نفسها إلىٰ أسر تلك الأحكام بأشد مما كانت فيه ، واستجلبت علىٰ نفسها سلطة عوامل طبيعية أخرىٰ تقتضيها حالتها التمويهية .

مثلهم في هذه الحالة كمثلهم بالنسبة للنساء ، فإن بعض خياليهم يزعم أن نساءهم قد نلن قسطًا عظيمًا من الحرية وأنهن صرن يتمتعن بمواهبهن أكثر من الشعوب الهمجية ، ويستدلون علىٰ أقوالهم هذه بتمويهات لفظية ، بينما الطبيعة في الوقت نفسه تكذب أولئك المدعين طوراً بلسان رجالها من ذلك العالم الذي سترىٰ أقوالهم إن شاء الله ، ومرة بأفاعيلها المحسوسة ، فإنا أثبتنا لك في الفصل المتقدم أن الفرق بين الأبيض والبيضاء صار أكبر بكثير من الفرق بين الأسود والسوداء ، وما ذلك إلا علامة عملية تثبت أن ذلك الجنس الرقيق هناك في هبوط مستمر ، وهذا الهبوط المستمر صائح من الطبيعة ينطق بلسان فصيح : أن الأسر هناك مهما رقت مظاهره أشد منه عند سواهم .

نحن بإقامتنا الأدلة العيانية (ولا سيما إذا استشهدنا بأعظم عمرانيّ العصر) علىٰ أن المرأة في البلاد المتمدنة أشد استكانة للأسر من المرأة الشرقية .

نرجو أن يكون ذلك أكبر زاجر وأعظم رادع للمرأة المسلمة عن سماع لفظة حرية ، لئلا تقع في أدنىٰ مما هي فيه ، ولتضع نصب عينها

فقط تهذيب نفسها ، وتنمية ملكاتها على حسب قانونها الطبيعي المرسوم لها من لدن العناية الإلهية ، فإنها تكون بهذه الواسطة مستحقة لما ورد في حقها من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، وغير معرضة لأحكام العلم والعلماء في العالم المتمدن الذين ضاقوا ذرعًا من الخطر الذي وقعوا فيه كما سيمر تفصيلاً .

لو كان حصل تحرير حقيقي للنساء في أي عالم من العالمين لعلم ذلك جهابذة العلماء قبل كتاب الأقاصيص ، ولما سموا ذلك اللغط بالتحرير مستحيلات خيالية لو تحققت يومًا ما لأفسدت حال المرأة(١) .

* قال أستاذ الأساتذة الحسيين ، وواضع علم العمران ، العلامة (أجوست كونت) في كتابه « النظام السياسي على حسب الفلسفة الحسية » ما يأتي :

« نحن بدون أن نكلف أنفسنا مناقشة تلك المستحيلات الخيالية (يعني: تحرير المرأة) المؤخرة للرقي يلزمنا أن نحس (لنقدر قدر النظام الحقيقي) بأنه لو نال النساء يومًا من الأيام هذه المساواة المادية التي يتطلبها لهن الذين يزعمون الدفاع عنهن بغير رضائهن، فإن ضماناتهن

---

(١) الأديب كتب هذا الكتاب قبل التحرير العام للمرأة أي قبل مائة عام وما توقعه قبل مائه عام من الفساد نشاهد غرائب أطواره اليوم .

الاجتماعية تفسد على قدر ما تفسد حالتهن الأدبية ، لأنهن في تلك الحالة سيكنّ خاضعات في أغلب الصنائع لمزاحمة يومية قوية ، بحيث لا يمكنهن القيام بها كما أنه في الوقت نفسه تتكدر المنابع الأصلية للمحبة المتبادلة » .

على أي دعامة يستند هؤلاء الأساتذة في تحقيق نظرياتهم هذه ؟ على العلم الصحيح والقوانين الحيوية المعروفة ، لا على الأهواء وما تزينه النفوس من حب التغيير والتحوير في مراتب الكائنات ، وقد مضت أمم[1] (سنحدث لك منها ذكرًا) طافت بعقولها مثل هذه المشروعات ، فجرت على كيانها أتعس الحوادث الاجتماعية ، وذهبت في خبر كان ، وقد عد هذا الحادث علماء الاجتماع البشري تجربة لا يغترون بعدها بزخارف الفلسفة الخيالية .

* جاء في « دائرة معارف القرن التاسع عشر » ما تعريبه : « **إن الحركة التي تألفت في أيامنا هذه في صالح النساء لن يكون نتيجتها حتماً إلا تحقيق صدق هذه التجربة العمومية تحقيقًا نهائيًا** .

إن نوعنا الإنساني بجملته عاش زمانًا مديدًا في كل جهة في حالة اجتماعية أدنى بكثير من الحالة التي يرثون النساء، من أجلها اليوم ، فأمكن الجمعية البشرية أن تتخلص من وطأتها شيئًا فشيئًا منذ القرون الوسطى

---

(١) يقصد الأمة الرومانية الآتي ذكرها .

لدى الشعوب المرتقية ، لأن ذلك الفساد الاجتماعي الذي هو حالة عرضية اقتضاها الزمن السالف لم تكن متعلقة بامتياز الحاكمين عن المحكومين في شيء عضوي (يعني كما هي الحالة بين النساء والرجال فإن الخلاف بينهم عضوي) أما خضوع النساء ، فبالعكس لن يكون بالضرورة له نهاية ينتهي إليها بل سيتوافق شيئًا فشيئًا مع الكمال الأدبي العام(١) ، لأنه يستند مباشرة على الهبوط الطبيعي للمرأة الذي لا يمكن ملافاته ، وهذا الهبوط الطبيعي مؤسس ومحقق بواسطة المقارنات البيولوجية (الحيوية) وبالمشاهدات الاجتماعية اليومية .

فإن البيولوجيا تبرهن لنا تشريحيا وفسيولوجيا بأن في السلسلة الحيوانية (وبالأخص في الإنسان) نجد الأنثى مركبة في حالة طفلية أصلية تجعلها أحط فطريًا من التركيب العضوي المقابل له » .

ولما كتبت مدام (هيركور) الشهيرة بالمدافعة عن حقوق النساء إلى الفيلسوف الاشتراكي المشهور (برودون) تسأله عن رأيه في مسألة النساء ؛ أجابها بأنه لا يعتبر المساعي المبذولة من النساء في تحرير المرأة .

كما يقول بالحرف الواحد في كتابه « ابتكار النظام » :

« إلا شغفًا يدل على علة أصابت جنسهن ، وهي علة تبرهن على عدم استعدادهن لتقدير قدر أنفسهن وسياسة أمورهن بذاتهن »(٢) .

---

(١) أي مع تطوير هذا التحرير فإنه لن يكون له نهاية محدودة حتى تكون السذاجة أحسن منه .

(٢) ثم هذا هو المحسوس من واقع التحرير هذه الأيام .

* ثم أخذ يبرهن لها على مستنداته العلمية فقال بالحرف الواحد :

« إن الفرق الجنسي بين الرجل والمرأة يفصلهما فصلاً شبيهًا (ولا أقول : مساويًا) بالفرق بين الأنواع والأجناس من الحيوانات ، وبهذا الفرق فلا يمكن للمرأة والرجل أن يكونا شريكين ، ولكن لا أقول : إنهما لا يستطيعان أن يكونا غير ذلك » .

وبناءً عليه ، فالمرأة لا تستطيع أن تكون وطنية إلا بالنسبة لكون زوجها وطنيًا ، كما يقال : السيدة الرئيسة لزوجة رئيس الجمهورية .

ولكن كل هذا الكلام لا يشير إلى أنه ليس للمرأة دور تلعبه في الوجود ، وبالاختصار إني مستعد لأن أثبت بالمشاهدات والبراهين أن المرأة التي هي أقل من الرجل قوة أحط منه في العوالم الصناعية والفلسفية والأخلاقية ، وأن حالة المرأة في الهيئة الاجتماعية إذا جرت على النسق الذي تريدينه كما هو حالة الرجل فيكون أمرها قد انتهى فإنها تصير مستعبدة مملوكة .

نقول : يا للأسف ! أَمِثل هذه الأحكام العلمية الصارمة تنتهي مرحمة الساعين في تحرير النساء ؟! فإن كل مساعيهم وحججهم الوهمية تذهب أمام الواقع والعلم هباءً منثوراً ولا تكون نتيجتها إلا تحرش علماء الكون ضد أولئك الناس ، وجعل المرأة ألعوبة في الأفواه .

هذا يقول إنها في حالة طفلية ، وذلك يقول إنها غير مؤدبة ،

وآخر يقول غير ذلك مما نتألم له معشر المسلمين « الذين يأمرنا ديننا بحسن معاملتهن » كل التألم ، فما أضر تلك المدافعات الواهية على هذا الجنس الرقيق ! وما كان أغناهن عنها !

* يذهب حضرة مؤلف « المرأة الجديدة » إلى أن في أوروبا وأمريكا حركة تسعى لزيادة حرية النساء فقال :

« لهذا يشتغل محبو الترقي في أوروبا وأمريكا لتحسين حال المرأة، وإيصالها من الكمال فوق ما وصلت إليه الآن ، وآلوا على أنفسهم أن يجاهدوا في هذا السبيل حتى يبلغ النساء مرتبة الرجال فيساوينهم في جميع الحقوق الإنسانية ، ولا أنكر أن عدداً غير قليل من الغربيين لم يزل يجادل في صحة أصل المساواة التامة بين الصنفين .

فهناك مذهبان يتزاحمان :

أحدهما : يكتفي بما وصلت إليه المرأة الغربية من الحرية والحقوق.

والثاني : يطلب الازدياد فيهما حتى لا يبقى فرق بين الصنفين » .

أما نحن فنقول : لا يسوغ لنا تصديق هذه النظرية إلا إذا كلف حضرة الباحث نفسه فأتى لنا بمقولات كل من الحزبين اللذين ذكرهما لنعرف الأهمية الحقيقية لكل منهما ، ولنتحقق أي الحزبين أكثر ناصراً وأشد عضداً .

أمــا نحن ، فلم نـر من بين العلمــاء الموثوق برأيهم ممن نقلنا ، وسننقل أقوالهم واحداً يستحسن ذلك القسط من الحرية المموهة .

وعلىٰ مـا نعلم ويعلم كل إنسـان أنه ليس لدينا إلا طريق واحـد لمعرفة حقيقة الأجانب عنا ، وهي الاسترشاد بأقوال كبارعلمائهم ، وقد قمنا نحن بهذا الواجب فأتينا بما هو مكتوب بدوائر معارفهم وبتآليف رؤساء فلاسفتهم مثل (أوجست كنت) و (برودون) و(جول سيمون) وغيرهم .

وأمـا لو استـعبـدنا أفكارنا لكل قائل وكـاتب من ذلك العـالم ، فلنستعد إذن لقبول كل سفسطةٍ ، فإن الحرية القلمية التي يتمتعون بها تبيح لهم أن يقولوا كل شيء ، حتىٰ أن فيهم رجالاً ينصحون بقتل كل ذي عاهة لكي لا يكون في العالم إلا الأصحاء فقط ، بقصد تطهير النوع الإنساني من الأمراض الخبيثة .

فهل يليق بنا ونحن في هذا الدور الحرج أن ننبـذ مقررات العلوم الصحيحة ، ونطرح ما يقوله أعقل عقلاء القوم في العصرالحاضر ، ونلقي بأيدينا بين كتَّاب حكم عليهم عقلاء بلادهم بأنهم إنما يشتغلون للإفساد وإحداث الارتباك بين الجنسين الرجل والمرأة ؟

يقول حضرة المؤلف : إن هناك مذهبين يتزاحمان .

نقول : نعم ، أحدهما : قسم العلماء العقلاء أصحاب البصر في

أسرار الطبيعة والخليقة ، وقسم الخياليين أصحاب الأهواء وإن ظهر هؤلاء الأخيرون يوماً من الأيام في شأن من الشئون فليس ذلك بعجيب في ذلك الشكل المعتل من المدنية (عفواً فإني أقلد العمراني (جيوم فريرو) في هذا التعبير كما سترى) فإن منهم من يشير بملاشاة الحكومات والديانات ، ومنهم من يشير بإباحة جميع الشهوات ، ومنهم من يشير بهدم سائر معالم المدنيات ، إلى غير ذلك من إشكال الخيالات .

فهل كتب علينا معشر الشرقيين أن نعتمد على المتطرفين في كل تصرفاتنا الاجتماعية ؟

أما يكفينا أن نرى العلم والحس والعقل وجميع علماء البشر وأكبر عقلائهم قاموا يقررون اليوم ما نصته الشريعة الإسلامية بالحرف الواحد ، فنقتدي بما قررته تعاليمها المقدسة لننجو من اللائمة عند الله ؟

يقول حضرة المؤلف : **« إن المرأة فى نظر المسلمين على الجملة ليست إنساناً تاماً ، وإن الرجل منهم يعتبر أن له حق السيادة عليها ، ويجرى فى معاملته لها على هذا الاعتقاد »** .١

نقول : لا يوجد مسلم يعتدُّ به يعتقد هذا الاعتقاد ، بل لا يوجد مسلم يقول بأن المرأة طفلة بالنسبة للرجل وبينها وبينه من التفاوت مثل ما بين أجناس الحيوانات ، كما يقول علماء الفسيولوجيا (انظر دائرة معارف القرن التاسع عشر) .

ولا يوجد مسلم يقول أن هذه المرأة ليست أنثى الإنسان الحالي ، بل أنثى كائن ضعيف مثلها ثم تغلب عليها الرجل ، وأفنى قرينها الأول كما يقول بعض علماء الإنسان (انظر دائرة المعارف الكبرى) .

ولا يوجد مسلم يقول كما يقول الفيلسوف الشهير (برودون) أن المرأة مثلها في المعامل كمثل المشبك والبكرة إلخ .

أليس كل هذا يدل على أن المرأة في نظر أجهل المسلمين أرقى مما هي في نظر العلم الأوروباوي ؟

هل من العدالة أن نكلف المرأة المسكينة بتلك المهمة المنزلية ، مهمة التربية الطفلية الشاقة ، ثم نكلفها فوق ذلك بأن تشتغل طول يومها بتحقيق الجرائم وتطبيق بنود القوانين على مرتكبي المآثم ؟

إذا ساغ لنا أن نلقي على عاتق المرأة تبعة فساد التربية ، مع علمنا بأنها تحتاج إلى ملاحظة ومثابرة ودقة ، فكيف تبيح لنا العدالة أن نحملها فوق ذلك بحكومة البلاد وسياسة أمور العباد ؟

إذا كانت المرأة تكلف بهذين العملين ، فماذا يعمل الرجل إذن ؟

وإذا كان هذا هو كمال النساء ، أو هو الطريق الذي تسير فيه المرأة إلى كمالها ، فإن في البلاد المتوحشة مثالاً للكمال أحسن من هذا بكثير ، فإن الرجال هناك يجلسون مرتاحي البال خاليّ الذهن من كل

شيء ويكلفون نساءهم بكل الأعمال حتى بالحرث والحصد والطحن وجلب المياه من الأماكن البعيدة وغير ذلك ، فيجب علينا إذن أن ندرس تلك الشعوب جيداً لنتعلم منهم كيف يجب أن يرتاح الرجال على مصاريف المرأة .

أليس هذا هو الأسر بعينه ولكن تحت ستار حرية مموهة ؟

إن الحقيقة التي لا مراء فيها ويشهد بها الحس والعقل والوجدان هي ما قاله العلامة الفيلسوف (جول سيمون) الاقتصادي الشهير في مجلة المجلات الفرنساوية (مجلد ١٨) :

« المرأة التي تشتغل خارج بيتها تؤدي عمل عامل بسيط ، ولكنها لا تؤدي عمل امرأة » .

* ويقول الفيلسوف الاقتصادي (جول سيمون) في (مجلة المجلات مجلد ١٨) : **« النساء قد صرن الآن نساجات وطباعات إلخ إلخ، وقد استخدمتهن الحكومة في معاملها ، وبهذا فقد اكتسبن بعض دريهمات ، ولكنهن في مقابل ذلك قد قوضن دعائم عائلاتهن تقويضاً!!!**

نعم ، إن الرجل صار يستفيد من كسب أمرأته ، ولكن بإزاء ذلك قد قلّ مكسبه لمزاحمتها له في عمله ، ثم قال : **وهناك نساء أرقى من هؤلاء يشتغلن بمسك الدفاتر وفي محلات التجارات ، ويستخدمن في الحكومة بصفة معلمات وبينهن عدد عديد في التلغرافات والبوسطة**

والسكك الحديدية وبنك فرنسا والكريدي ليونيه ، ولكن هذه الوظائف قد سلختهن من عائلاتهن سلخاً » .

هذا قول صاحب الدار ، وصاحب الدار لا شك أدرىٰ بما فيها ، فلا يليق بنا أن نلقي بكلامه عرض الحائط ونتمسك بخلافه .

* قالت (مدام دو فرينو) في مجلتها (أنيس الجليس) الصادرة في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٩ ، بعد أن أوردت إحصائية في تقدم نساء أمريكا في الآداب والصنائع :

« **ولكن يظهر أنه كلما أمعنت المرأة فى التوسع بالفنون والعلوم زاد الرجل في طلاقها ، وكان أكثر ذلك في الولايات المتحدة ، فإن الطلاق يمتد فيها إلى حد غريب غير موجود في هذه البلاد الإسلامية وسواها »** انتهى .

هذا الخطر المتوقع من الطلاق سنذكره (إن شاء الله) في محله بعد أن نورد إحصائياته المخيفة .

ونحن هنا نتحفظ فنقول : إننا لا نظن أن توغل المرأة في العلوم

والآداب يجعلها مكروهة لدى الرجل . ولكن الذي يجعلها قبيحة مزدراة، هو مزاحمتها له في عمله الخارجي ليس إلا .

* وقال الفيلسوف (برودون) في كتابه « ابتكار النظام » لما ضاق ذرعًا باللغط بتحرير النساء تلك الحرية المفرطة فقد قال ما نصه :

« **وأيضًا فإني فضلاً عن كوني لا أستحسن ما يسمونه اليوم بتحرير المرأة ، أميل من باب أولى إذا دعا الحال أن أشير بحبسها** » . والإنسان لا يشير بالحبس إلا إذا كان في مكنته ذلك .

* وقالت (دائرة معارف القرن التاسع عشر) :

« **من هنا يتضح أنه وجد عصر كانت فيه قوانين العائلة غير معروفة، وفيه كانت المرأة حرة من كل قيد ، ومستقلة تمام الاستقلال** (تأمل جيدًا) **ومع ذلك فإنها كانت محتقرة مهانة للدَّرجة القصوى** .

فلما تكونت العائلة تغير حال المرأة كل التغير، لأنها بمجرد دخولها العائلة تنازلت عن استقلالها ، ولكنها اكتسبت في مقابل ذلك مركزًا معنويًا لم يكن لها من قبل » .

من هذه المشاهدة الاجتماعية نعلم أن المرأة في دور الاستقلال كانت محتقرة مهانة للدرجة القصوى .

وبناءً عليه فإن أرادت المرأة أن تكون كذلك بنوال استقلالها ثانيًا فلتفعل .

ربما يقـول قـائل : إن هذه الحـركـة العـصـرية الدافـعـة لـهن إلى الاستقلال ليست مصحوبة بهدم العائلة كما كان الحال سابقًا ، وبذلك فلن تكون مهانة .

نقول : صـدق من يقول : إن التـاريخ يعيـد نفسـه ، فـإن إبطال الزواج قـد تحـدث به النسـاء في كل بلد متـمـدن ، وألفن فـيـه الكتب الضخمة .

* قالت مجلة المجلات (مجلد ١٨) ما يأتي :

« إن الزواج الذي كان آباؤنا يعتبرونه ضروريًا يظهر أنه قد صدم صدمة شديدة في كل جهة ، فإن الرقي العقلي الذي نالته المرأة وامتداد حقوقها يومًا بعد يوم وغرامها الشديد بمساواة الرجل في حقوقه وإفراطاته، كل ذلك يهدد مدركاتنا التي ورثناها على الزواج » .

* ثم قالت : **« إن رفض الناس للزواج ومحبتهم للطلاق ، وهما الأمران اللذان ينتشران يومًا فيومًا في أمريكا وفي كل الممالك الأوربية ، ثم كل هذه الاغتصابات النسائية، تشعر بمرض يجب أن يتنبه له المتشرعون»** .

هذا هو القول الفصل الذي ينتج من التحليلات العمرانية ، ونحن لا نستبـعد أن شقًا من نسـاء البشر يتوصلن إلى نوال ذلك الاستقلال المطلق ، ولكنهن سيـوقعن أنفسـهن في أشد أنواع الأسـر ، وأخس أشكال الاستكانة والذلة .

أما نحن معشر المسلمين الذين لا ضالة لنا إلا الحكمة نأخذها حيث وجدناها ، فلا يليق بنا أن نلقي بأنفسنا إلى شأن من الشئون قبل تدقيق النظر في مجموع الحركة الإنسانية، لتتجلى لنا وجوه المنافع باسمة زاهية، ووجوه المضار عابسة باكية، فنأخذ الأولى، ونرد الثانية .

وقد حثنا ربنا على درس الأمم التي سلفت والبحث عن مناشئ سقوطها ؛ لنتحاشاها ، ولا نقع مثلهم فيها وها نحن قمنا بشيء من ذلك ورأينا الاستقلال المطلق للنساء سبب شقائهن وشقاء الرجال معهن، فيلزمنا أن نقلع عن الخوض فيه وأن نبحث عن الخطة المثلى لتحسين حال النساء ، بحيث لا نخرج عن حدود الحكمة الإلهية ، ولا الفطرة الإنسانية في شيء ، وقال رسول الله ﷺ : « **لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنه على الحق أطراً** ... » إلى آخر الحديث .

***

الفصل الخامس

هل للنساء أن يشاركن الرجال في الأعمال ؟ ؟

إن من أقبح مظاهر أسر المرأة في الأفراد والأمم ترك حبلها على غاربها ، وقذفها بذلك الجسم اللين ، والعواطف الرقيقة ، والفؤاد المملوء رحمة والمهجة المتشبعة بالشفقة ، أن تزاحم الرجال في معترك الحياة كتفًا لكتف لسد رمقها ، وتقضي طول نهارها وجزءًا من ليلها بين لهيب المعامل ودخانها ، أو على قارعة الطرق بين هيجاء تلك المدنية المفزعة ولو تسنى لك يومًا من الأيام أن تزور أكبر معامل أوروبا وأمريكا مما جمع إلى فخامة المبنى وضخامته سعة لا يكاد يحيط بها البصر رأيت في داخلها أمرًا عجيبًا .

رأيت جماعات من ذلك الجنس الرقيق مكلفات بأشق الأعمال ، وأقسى المحاولات العضلية ، واقفات أمام التنانير المسجورة يعانين أوصاب الحياة ومرارة العيش تقرأ على وجوههن التي لفحتها تلك النيران المسعرة هذه الجملة التي لا تذهب من مخيلتك أبدًا :

« هذا منتهى أسر الرجل للمرأة » .

ولو كلفت نفسك فسألتهن عن مقدار ما تأخذه الواحدة يوميًا في ذلك الجحيم المتأجج ، لأجابك مئات منهن بل ألوف ، أن أجر الواحدة

على هذا الهم الناصب والكد الواصب لا يتجاوز بضع دريهمات ، وهو مبلغ لا يكدن ينلن العيش به إلا تبلغًا .

ومحررو المرأة عندنا بدل أن يعدوا هذا مرضًا اجتماعيًا كما يعده علماء العصر الحاضر ويضعوا كل همَّتهم في حياطة بلادنا منه مثل مايفعل حكماء أوروبا وأمريكا كما سنريك أقوالهم ، نراهم يودون أن يفتحوا علينا ذلك الباب الهائل لظنهم أننا سائرون خلف أوروبا قدمًا بقدم .

ولكنهم لو كانوا دققوا قليلاً في حوافظ حياتنا الاجتماعية الإسلامية ، لكانوا علموا بأننا بما أكسبتنا الروح الإسلامية نكاد نكون بمعزل عن كل تلك الأمراض العمرانية المخيفة .

* يقول حضرة مؤلف « المرأة الجديدة » : « **لهذا يمكننا أن نؤكد أن عدد النساء المحترفات لابد أن يزداد في كل سنة عن الأخرى ، لأننا سائرون في الطريق الذي سارت فيه أوروبا قبلنا** » .

نقول : إننا نخالف حضرته في هذه النقطة كل المخالفة ، فإننا لسنا في طريق أوروبا ، ولم يظهر منا ما يشير إلى ذلك مطلقًا ، وإن أقل نظرة على هيئتنا وهيئتهم الاجتماعيتين ترينا لأول وهلة أن الفرق بعيد بين أصولنا الحيوية وأصولهم ، وعواملنا العمرانية وعواملهم .

نحن أمة أحكمت روابطنا أصول دينية ، ورسخ في أذهاننا أننا لم

نهبط عن عرش عزنا إلا لترك تلك الأصول الموصلة لسعادة الحياتين .

وتلك أمم ربطت آحادها روابط الجنسية ، أو الوطنية ، ورسخ في أذهانها أنها لم ترتق إلا بترك التعاليم الدينية .

هذه النظرة البسيطة على أصولنا الاجتماعية العمومية تكفي لأن تقنعنا بأننا لن نستطيع أن نحذو حذو أوروبا في شئونها إلا إذا حلت عندنا محل الرابطة الدينية رابطة وطنية أو جنسية ، ومحي من أذهاننا أن رقينا لأوج السعادة لا يتأتى إلا بترك الديانة الإسلامية .

وهل يمكن حدوث هذا التحول الذريع ما دام العلم التجريبي يرينا كل يوم أن ديننا هو أكسير شفائنا ، ومرهم سائر جراحنا ، وهو الأمر الذي أدركه مثلنا كثير من مشاهير علماء الغرب .

والخلاصة ما دامت رابطتنا الإسلامية الرئيسية هي من غير جنس روابط سائر شعوب العالم ، فلا يتأتى لنا مطلقًا أن نحذو حذو أي شعب من الشعوب فيما يصادم طبيعة تركيبتنا الإسلامية ، ولا يوافق تعاليم مدنيتنا العزيزة في نفوسنا .

ومع كل هذا ، فإن الطريق الذي يسير فيه الغرب بالنسبة للنساء مملوء بالمخاطر ، مشوب بالعواثير المخيفة بشهادة أكبر عمرانيهم ، فإنهم يعتبرون اشتغال النساء بأشغال الرجال مرضًا اجتماعيًا يجب ملافاته ، فكيف يسوغ لنا اليوم أن نتمسح في أمراضهم لننتحلها لأنفسنا ثم نكلف

أنفسنا بتحمل أعراضها وآلامها ؟! .

إذا كان لابد لنا من أن نحذو حذوهم في شيء ، فلماذا لا نقلدهم فيما هم فيه صحيحون ؟

نحن لا يسوغ لنا أن نأخذ شيئًا من أشياء تلك المدنية إلا بعد تحليله تحليلاً دقيقًا جداً ، ويجب علينا حينما نقف أمام مرائيها الفتانة أن نمسح أعيننا بمنديل الحكمة لنقدر على تمييز الحسن من القبيح فيها ، وإن لم نجد من أنفسنا الشجاعة على ذلك فيجب علينا بالأقل أن نسأل علماءهم عنها .

ونحن جالسون هذه الساعة في مكتبتنا وبين أيدينا أقاويل كثيرة لها علاقة بموضوعنا هذا ، فلننتخب منها ما له مناسبة بمسألة النساء ليعلم المسلمون أننا إن لم نداو عللنا بأيدينا فعبثًا نحاول إزالتها بأيدي سوانا من الأمم .

* كتب الأستاذ في علم الإنسان (جيوم فريرو) في المجلد الأول من مجلة المجلات لسنة ١٨٩٥ ما يأتي :

« إن العلامات المنذرة بقرب حلول الأزمة النهائية لهذا الشكل من المدنية الذي نعيش فيه كثيرة جداً (تأمل) بحيث لا يمر يوم حتى يقف الباحث على إنذارات جديدة فيه .

فلنعط نحن أيضاً أنفسنا وظيفة الطبيب ، ولنجتهد في مساعدة ما

شخصه الأطباء من هذا المرض الاجتماعي في زماننا هذا بدرس هذا الشكل الجديد من الرهبنة التي مع عدم استنادها على دين تهددنا بأنها ستصل إلى الحد الذي وصلت إليه الرهبنة الدينية في زمن من أزمنة القرون الوسطى .

يعلم الرجال والنساء بالتجربة وفي كل بلد بأن العقبات التي تحول دون الزواج تزداد يومًا بعد يوم ، وأن هناك أسبابًا لا عداد لها (اقتصادية على الخصوص) تقف في طريقه حتى أن كثيرًا من الناس لما يئسوا من إمكان تذليلها صبروا على العزوبة بكل وسعهم .

ومن السهل علينا أن نقول إذن : إن عددًا عديدًا من أشخاص من كلا الجنسين يجب أن يحدثوا آثارًا هائلة على كيان الهيئة الاجتماعية كلها، وذلك بمعيشتهم بلا زواج أعني في شروط حيوية صناعية .

ويلزم أن الآثار التى تنتج من النساء العازبات تكون أكبر من آثار الرجال العازبين .

فإن عزوبة الرجل تكسبه في الواقع ونفس الأمر صفات نفسية خاصة به ، ولكنها لا تقلب كيان شخصيته تمامًا لأنها لا تستلزم عنده العفة مطلقًا ، ويمكنها أن تجبره على المعيشة بين بنات الهوى أو ترغمه على الفساد .

وعلى هذا ، فالعزوبة لا تقتل فيه تلك الوظيفة الفسيولوجية دفعة واحدة.

وأما المرأة فبخلاف ذلك فإن الشروط الاجتماعية الحالية تستدعي عفتها في عزوبتها ، والعفاف يقتضي (تأمل) حذف وظيفة الأمومة ، وهي الوظيفة التي خلقت المرأة لأجلها جسماً روحاً .

لاشك إذن أن هذه الحالة يجب أن تفسد شخصيتها فساداً ذريعًا ، ولاشك أيضًا أن عدداً كبيراً من هذه النسوة (تأمل) يحدثن آثاراً هائلة على الهيئة الاجتماعية » .

هذا القول من ذلك العمراني الطائر الصيت (وبين أيدينا عشرات من أمثاله) يرينا جليًا أن في شكل المدنية الغربية علامات منذرة بقرب حدوث أزمة نهائية على تركيبها ، وخصوصًا من جهة النساء .

فإذا كان لابد لنا من تقليدها في شأن من الشئون ، فلا أقل من أن نجتهد في نقده بعقل وحكمة قبل أن تزل بنا القدم ولا ينفع الندم ، وإن كان لا قدرة لنا على نقد المسائل العمرانية الكبرى التي لها ارتباط بمستقبل الأمم ، فمن السهل أن نسترشد بعلماء تلك المدنية ، ونستفيد من تجاربهم اليومية » وإن تاق القارئ إلى معرفة شيء من أقاويلهم في هذا الخصوص ، فإليه قول أستاذ الفلسفة العملية وواضع علم العمران الفيلسوف (أجوست كونت) نترجمه من كتابه (النظام السياسي على حسب أصول الفلسفة الحسية) .

* قال بعد ما ذكر مسألة اشتغال النساء بأشغال الرجال وما ينجم عن ذلك من الخلل الاجتماعي :

« ولكن بدل هذه الأحلام الهادمة المفسدة ، يمكن أن قاعدة طبيعية تضمن حياة المرأة تمامًا ، وذلك يكون بتعيين وتحديد الواجبات المادية على الجنس العامل (الرجال) نحو الجنس المحب (النساء) ، والفلسفة الحسية يمكنها وحدها بالنسبة لامتيازها بروح الحقيقة أن تسن هذه القاعدة الطبيعية بطريقة تجعلها سائدة محترمة ، وليست الفلسفة الجديدة (الحسية) هي التي ابتكرت هذا الميل العام ؛ بل إنها فقط قدرته حق قدره بعد تدقيق التأمل في مجموع الحركة الإنسانية (تأمل) .

يجب أن الرجل يُغَذِّي المرأة ، هذا هو القانون الطبيعي لنوعنا الإنساني ، وهو قانون يلائم الحياة الأصلية المنزلية للجنس المحب (النساء)، وهذه القاعدة التي تريك أخشن أشكال الاجتماع تتحسن وتكمل على قدر رقي النوع الإنساني ، فإن كل الترقيات المادية التي تتطلبها الحالة الحالية للنساء تستحيل إلى لزوم تطبيق هذا الواجب الأساسي بالدقة ، ويجب أن نتائجه تحدث رد فعل على كل العلاقات الاجتماعية ، وبالأخص بالنسبة لأجر العملة .

هذا هو القانون الذي يلائم الميل الفطري يرتبط بوظيفة النساء الشريفة بصفتهن عاملاً حبيباً للآلة المولدة للحركة .

وهذا الإجبار (إجبار الرجل على تغذية المرأة) يشبه ذلك الإجبار الذي يقضي على الطبقة العاملة من الناس بأن تغذي الطبقة المفكرة منهم لتستطيع هذه أن تتفرغ باستعداد تام لأداء وظيفتها الأصلية .

غير أن واجبات الجنس العامل من الجهة المادية نحو الجنس المحب هي أقدس من تلك تبعًا لكون الوظيفة النسائية تقتضي الحياة المنزلية .

ولكن بالنسبة للمفكرين فإن هذا الإجبار يكون تضامنيًّا فقط بخلافه بالنسبة للنساء ، فإنه ذاتي » .

هذا ما يقوله أستاذ أساتذة العمران ، ومؤسس الفلسفة الحسية التي هي آخر ما وصل إليه النوع الإنساني من وسائل الحكم على حقيقة الأشياء من طريق الحس ، فانظر كيف تراه يحكم باسم الفطرة والطبيعة والاقتصاد بأنه لا يباح للنساء مشاركة الرجال في الأعمال ، فهل بعد هذا يليق بنا معشر أصحاب الدين الإسلامي الفطري أن نعصي أحكام الفطرة حتى ولو أتت إلينا من الغرب نفسه ؟

يقول معترض : وماذا نعمل إذا كان حال الوجود يقضي بأن يوجد عدد من النساء لا عائل لهن ؟! أنتركهن يمتن جوعًا ولا يزاحمن الرجال في الأعمال ؟

نقول : إذا علمت أن اشتغالهن خارج بيوتهن خلل اجتماعي خطير فالذمة وحب الجامعة تقضي علينا أن لا نسعى في زيادة انتشاره

بتسهيل سبيله ، بل توجب علينا الإنسانية أن نعمد إلى مداواته بكل وسعنا ، وبجهد استطاعتنا ، ونقلد الرجال الغيورين على مستقبل النوع الإنساني في أوروبا وأمريكا بالإشارة على الحكومات بسن القوانين الكافلة لراحة هذا الجنس الرقيق (الذي لا عائل له) فلننظر الآن إلى مدنية الدين الإسلامية لنرى ، هل فيها ما يضمن حياة هذا الجنس من مخالب الجوع والفاقة ؟

نعم ، إنها ضمنت ذلك بقولها : أنه لومات زوج المرأة ولم يكن لها عائل من أقاربها عمومًا (وجب على بيت المال أن يقوم بنفقاتها في كل ما تحتاج إليه) هذا ما تقوله المدنية الإسلامية ، وهذا ما آب إليه أصحاب الفلسفة العملية الحسية بعد الاعتبار بمجموع الحركة الإنسانية العامة ، وبعد أن دخل قومهم في ألف دور ودور من أدوار الارتباكات الزمنية .

* فقد قال شيخها ومؤسسها الفيلسوف (أجوست كونت) في كتابه (النظام السياسي) :

« وفي حالة عدم وجود زوج ولا أقارب ، يجب على الهيئة الاجتماعية أن تضمن حياة كل امرأة ، إما في مقابلة عدم استقلالها الذي لا يمكنها أن تتجنبه ، وإما على الخصوص بالنسبة إلى وظيفتها الأدبية الضرورية ، وإليك في هذا الموضوع المعنى الحقيقي للرقي الإنساني : يجب

أن تكون الحياة النسائية منزلية على قدر الإمكان ، ويجب تخليصها من كل عمل خارجي ليمكنها على ما يرام أن تحقق وظيفتها الحبيبة » انتهى .

هذا ما آب إليه أصحاب فلسفة القرن العشرين ، وقد رأيت أنه مطابق لأصول المدنية الإسلامية ، فبأي حجة بعد هذا ننصح بتقليد أصحاب المدنية المادية في أمراضهم وكيف يكون حالنا إذا قلدناهم فيها؟ فنشبت فينا ونحن في هذه الحالة من الضعف المساعد لقوة المرض ، ثم لوجدناهم بعد ذلك سنوا قانونًا جديدًا يريح المرأة من تلك المحن العملية، ومن أسرها للعمل الخارجي ، أنرجع وقتها ننصح الناس بإبطال ما كنا أشرنا به ؟ ولماذا كل هذا التكلف العجيب بعد ما رأينا بأعيننا أن مدنيتنا الإسلامية هي الغاية التي يتقرب منها البشر يومًا بعد يوم ؟ .

ما الذي حدا بعلماء أوروبا إلى الرجوع إلى كراهة عمل النساء الخارجي « رغمًا عما يعتقده بعض الشرقيين من أن مزاحمة المرأة للرجل في الأشغال شكل جميل من أشكال المدنية وخطوة كبرى من خطوات التقدم البشري ؟» .

الذي أرجعهم رغم أنفهم إلى ذلك ، ما رأوه بأعينهم من سوء النتيجة عليها .

رأوها أسيرة مسكينة ، تزاحم الرجل كتفًا لكتف ، ولا تنال

بجانبه إلا الفضلات التي يعرض عنها وهي في كل مجال من مجالات العمل عرضة للتغلب عليها وعلى ما بيدها .

* قال الفيلسوف (فوربيه) ، وهو أشد أنصار حرية المرأة ما يأتي :

« ما هي حالة المرأة اليوم ؟ إنها لا تعيش إلا في الحرمان حتى في عالم الصناعة الذي آلم الرجل بجميع أنحائه لغاية الاشتغالات الدقيقة بالخياطة وشغل الريش .

أما المرأة فيراها الناس منكبة على أشق الأعمال في الخلاء . فما هي إذن مصادر الحياة بالنسبة للنساء المحرومات من المال ؟

آلمغزل ، أم جمالهن إذا كان لهن جمال ؟ نعم ، إن حيلتهن الوحيدة في السفاد العلني أو السرى ليس إلا وهي الحيلة التي تنازعهن الفلسفة فيها للآن .

هذا هو الحظ التعيس الذي ألجأتهن إليه هذه المدنية ، وهذا الاستعباد الزوجي الذي لم يفكرن للآن في مهاجمته . هل يمكن أن نرى ظلاً من العدالة في حظ النساء هذا ؟ » انتهى .

فأين تذهب المرأة المسكينة بين هذه المزاحمات القاسية ؟ إذا كانوا يقولون أن الإنسان يرتقي كل عصر في العواطف النفسية ، والمرحمة القلبية ، كما يرتقي في السعادة المادية ، فلماذا لا تتفتت القلوب

حسـرة، وتذوب الأضـلاع كـمداً ورأفة على ما وصل إليـه حال هذا الجنس الرقيق في القرن العشرين ؟ أي إنسـان لديه مسكة من الرحمـة يقبل أن تمتلخ المرأة من وظيفتها الطبيعية التي خلقت لها جسمًا وروحًا، ويلقى بها بين سعير هذه الحرب المعاشية الدموية ؟ أين تذهب المرأة بين هذه المزاحمات القاسية التي لم تقف عند حد الماديات فقط ، بل تعدتها إلى المعنويات أيضًا .

* قال الفيلسوف الاقتصادي الشهير (برودون) في كتابه (ابتكار النظام) ما يأتي :

« النوع الإنساني ليس مديناً للمرأة بأي فكرة أخلاقية ولا سياسية، ولا فلسفية ، فإنه مشى في طريق العلم بدون مساعدتها ، واستخرج منها المدهشات والعجائب .

النوع الإنساني ليس مديناً للنساء بأي اكتشاف صناعي ولا بأقل آلة، فالرجل وحده هو الذي يخترع ويكمل ويعمل وينتج ويُغَذِي المرأة .

ثم قال : وإن الدور الذي لعبته المرأة في الآداب هو مثل الدور الذي لعبته في (الفابريكا) ، فإنها لم تنفع في هذه إلا حيث لا يلزم استعمال القريحة مثلها في ذلك كمثل المشبك والبكرة » انتهى .

انظر إلى تلك المرأة المسكينة ، كيف يزاحمها الرجال ويمنعونها الحياة ويشبهونها بالمشبك والبكرة ! إني أعيذ المرأة المسلمة أن تكون

وهي تلك الموهبة التي تكلمنا عليها في فصلنا المتقدم لتتمكن من نوال كمالها الذي لا يمكن أن يشاركها الرجل فيه ، ولا يستطيع أن ينازعها في شيء منه ، وعلى زوجها رغم أنفه أن يأتيها بلوازمها من أي الطرق شاء .

ولتكن عندنا دائمًا بمنزلة القلب من الجسم ، تخدمه سائر الأعضاء، لتهنأ بهذا المركز السامي ، ولا تتحسر على ما لديها من الجهل ، فإنه عرض يزول بقليل من الجهد ، بخلاف ما لو تغير هذا النظام » وألقت بنفسها في معترك الحياة الخارجية ، فإنها لا تستطيع أن تسترد مركزها هذا مهما تاقت إليه وتمنته .

ثم إني أرجو مَن يهمهم تحسين حال المرأة المسلمة أن ينصتوا إلى حكمة بالغة فاه بها فيلسوف يعرف الناس جميعًا فضله من أعز أبناء هذه المدنية المادية ، وأكبر أستاذ من مؤسسيها وهو (جول سيمون) فقد كتب في (مجلة المجلات) فصلاً عجيبًا على كتاب ألفه العلامة الفرنسي (لوجوفيه)!!! .

قال : « **يجب أن المرأة تبقى مرأة** .

هذه كلمة المسيو (لوجوفيه) ، نعم ، يجب أن المرأة تبقي مرأة ، فإنها بهذه الصفة تستطيع أن تجد سعادتها ، وأن تهبها لسواها .

فلنصلح حال النساء ولكن لا نغيرها ،ولنحذر من قلبهن رجالاً .

لأنهن بذلك يفقدن خيراً كثيراً ، ونفقد نحن كل شيء . فإن الطبيعة قد أتقنت كل ما صنعته ، فندرسها ولنسع فى تحسينها ، ونخش كل ما يبعد عن قوانينها وأمثلتها » وقال :

«يقول بعض الفلاسفة : أن الحياة محفوفة بالمكاره ، ولكنهم ربما قالوا ذلك لأنهم لم يذوقوا طعم الحب طول عمرهم أما أنا فأقول : إن الحياة طيبة هنيئة ، ولكن بشرط أن يعلم كل من الرجل والمرأة المحل الذى خصصه ا تعالي لكل منهما » .

لماذا يقول هذا الأستاذ الاقتصادي الذي له أكبر الآثار في المجتمع الإنساني أمثال هذه النصائح ؟

لأنه رأىٰ بعيني رأسه أن خروج المرأة من خدرها ، واشتغالها بغير وظيفتها سلخها من عائلتها ، وقوّض دعائم بيتها ، كما نقل عنه ذلك بالحرف الواحد في فصل متقدم ، وسترىٰ من أقوال كثير من العلماء أنهم يرون رأيه ويتبرمون مثل تبرمه .

وزيادة عما تحدثه مشاركة النساء للرجال في العمل من التأثير الاقتصادي والعائلي السيئ ، فإن له أثراً آخر عليهن عجيبًا في ذاته .

* قال الأستاذ (جيّوم فريرو) البحاث الشهير في أحوال الإنسان وتطوراته (انظر مجلة المجلات مجلد سنة ١٨٩٥) .

« إنه يوجد في أوروبا كثير من النساء اللواتى يتعاطين أشغال الرجال،

ويلتجئن بذلك إلى ترك الزواج بالمرة (تأمل) وأولاء يصح تسميتهن بالجنس الثالث ، أي أنهن لسن برجال ولا نساء لمنافاتهن للأول طبيعة وتركيبًا ،وللأخريات وظائف وأعمالاً ، وقد درس هذا الأستاذ أحوالهن درساً مدققاً ، فوجد أنهن بمعيشتهن في تلك الحياة المصطنعة ، وانتزاعهن أنفسهن من وظائفهن الطبيعية التي خلقن لها جسمًا وروحًا ، قد تغيرت إحساساتهن عن إحساسات بنات جنسهن ، وصرن في حالة تشبه الماليخوليا ، فكأن الفطرة البشرية تقيم عليهن الحجة بلسانها الفعلي على إغفالهن حقوقها » .

* ثم قال بالحرف الواحد :

« وقد ابتدأ علماء العمران يشعرون بوخامة عاقبة هذا الأمر المنافي للسنن الطبيعية ، فإنه هاته النسوة بمزاحمتهن للرجال صار بعضهن عالة على الجمعية لا يجدن ما يشتغلن به ،ولو تمادى الحال على هذا المنوال لنشأ منه خلل اجتماعي عظيم الشأن » .

هل بعد هذا كله ننصح للنساء أن يلقين بأنفسهن في هيجاء الحياة الخارجية ؟

هل بعد أن ثبت لنا أن هذا الأمر داء اجتماعي قاصم لظهر الأمم، يليق بنا أن نسعى في مده وتوسيعه ؟

إذا كان الغربيون أنفسهم مع ما عندهم من الألوف المؤلفة من المعامل ومجالات التكسب يسعون في استئصاله ! فكيف نسعى نحن

المعامل ومجالات التكسب يسعون في استئصاله ، فكيف نسعى نحن مع قلة وسائلنا العملية في نشره ؟ !!

ألا يجب علينا بعد هذه الاعتبارات أن نتكاتف على عدم تغيير نظام الشريعة الإسلامية التي هي (وسترى هذا حسيًا عمليًا في كتاب المدنية إن شاء الله) ترجمة نظام الفطرة الإنسانية ولسان القوانين الطبيعية؟

أليس الأصلح لنا إن رأينا أن هناك علة ستبعدنا عن أوامرها ، أو تقربنا من نواهيها ، أن نهتم في درس مناشئها بالطرق الحكيمة لا أن نكون عونًا لها على أنفسنا ؟ .

* يقول حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) : « **وليس يفيدنا شيء أن يصبح رجال الأقلام عندنا ناقمين على ما وصلت إليه حالنا اليوم وما ستصل إليه على مر الأيام ، وأن يستشهدوا بما وقعت فيها أوروبا من نقصان عدد الزواج واحتراف النساء بأشغال الرجال .**

ذلك لا يفيد ؛ لأنه لا يمكن أن يترتب على هذه الشكوى أثر ما في مجرى الحوادث في العالم ، ولو كانت الشكوى تكفي في تغيير الحال لكان الأمر سهلاً » .

نقول : إن كان الأمر كذلك وكانت الشكوى لن تفيد شيئًا ، فلماذا يشكو حضرته من سوء حال المرأة عندنا وينصح بتغييرها ؟

إذا كان يعتقد حضرته أن نقصان عدد الزواج واحتراف النساء خلل اجتماعي ، كما يعتقده عقلاء العالم ، فلماذا لا يشكو منه ويعمل على ملافاته بدل شكواه من قلته عندنا وعمله على زيادته ؟

إذا دخل طبيب إلى بلدة ورأى أن جراثيم الطاعون تفتك في أهلها فتكًا ذريعًا بسبب ما لديهم من الأقذار ، فماذا يكون واجبه أمام تلك الحالة؟

أينصح الناس بالاستسلام للأمراض والخضوع لأفاعيل الميكروبات ؟! أم ينصحهم بإزالة الأوساخ لاستئصال شأفة الداء !!

فإذا كانت النصيحة لن تفيد في توجيه الإنسان نحو الصحة ، فبالأولى لن تفيده في تحبيب الأمراض إليه .

يقول حضرته : « **والحقيقة أن أهم عامل له أثر في حال الأمة ، هو حالها الاقتصادية ، ومن الأسف أن هذه الحال الاقتصادية ليس في إمكان أحد من الناس أن يحكم عليها ويديرها كيف شاء** » .

نقول : إذا كانت حالة الأمم الاقتصادية ليس من السهل إدارتها على حسب المرام ، فكان بالأولى حالتها الاجتماعية والأخلاقية ؟ !

على أن الحالة الاقتصادية إذا لم تكن قابلة للتغير لمؤثرات الإرشاد، فلماذا ينبغ في العالم المتمدن ذلك الجم الغفير من علماء الاقتصاد ؟ ولماذا يهتم أقوامهم بتلقف أبحاثهم تلقف الظمآن للماء ؟

وإذا كان لابد أن نحتذي مثال أوروبا ، فلماذا لا نأخذ مأخذهم في إلفات الناس إلى أحسن ضروب المعيشة ، بدل أن ننصحهم بالعمل بأفظع أنواع الفساد الاجتماعي ؟

* * *

الفصل السادس

هل فى طبيعة المرأة ما يدل علي إمكان تداخلها فى الأعمال الخارجية ؟؟

خلق الله الخلق على أتم نظام ، وأبدع إحكام ، ووهب كل كائن فيه سائر ما يحتاج إليه من أعضاء وأجزاء ، ووضع في كل عضو منه القابلية والاستعداد ما يبعثه من نفسه إلى طلب ما خلق لأجله .

تأمل في أسنان الحيوانات مثلاً ، ترى أنه يوجد بينها خلاف عظيم في الشكل والترتيب .

ترى لأكالة الحشائش أسنانًا بسيطة معدة لهرس النبات فقط ، أما أكالة الحيوانات فقد متعها الخالق (جلت قدرته) بأنياب حادة ، وقواطع ماضية ، وأضراس متينة تدل الرائي في مجموعها دلالة صريحة بأنها مستعدة لتمزيق اللحم ومضغه .

وهكذا ترى في جميع أجزائها وأجهزتها ترتيبًا خاصًا ، واستعدادًا مناسبًا لشكل غذائها ومحاولاتها اليومية .

هذه المشاهدة عند قراء التاريخ الطبيعي أحسن طريق للاستدلال على أن اشتغال النساء بأشغال الرجال يعد تعديًا منهن على حقوق طبيعتهن ، وخروجًا عن دائرتهن المرسومة لهن ، فيكون إجبارهن على

هذا التعدي أكبر مظهر من مظاهر أسر هذا الرجل القاسي لقرينته الضعيفة الرقيقة ، ومزاحمته لها بدون مرحمة ولا شفقة في ميادين هذه الحياة الخارجية الخطرة .

إن كل ما في المرأة يدل على أنها يجب أن تعيش في عالم غير عالم الرجل ، وإلا فتكون كما يقول عنها الأستاذ (جيوم فريرو) المتقدم ذكره جنسًا ثالثًا بين الرجال والنساء من مميزاته شحوب الوجه وعبوسه ودوام الكآبة والماليخوليا .

انظر للمرأة في إحساساتها تجدها مثال الرحمة والشفقة ، ونموذج الرقة والدعة ، ثم انظر لها في عواطفها تجدها ميالة لتضحية نفسها في سبيل غيرها ، مستعدة بفطرتها لعمل الخير والبر ، وهذه كلها صفات تنافي أهوال العالم الخارجي تمام المنافاة ؛ لأن الحياة الخارجية نضال وضراب ، وقتال وقراع ، فيها الشأن الأول وعلى القسوة في كل مناحيها المعوَّل .

فأين تذهب المرأة المسكينة بإحساساتها وعواطفها في هذه الحرب الجهنمية المستعرة ؟

وماذا تعمل بذلك الفؤاد الرقيق في هذا المعترك القاسي ، الذي يجب أن يؤلمها في جميع مظاهره ومرائيه ، ويجافي رقتها في سائر مشاهده ونواحيه ؟

لهذا السبب صارت المرأة في البلاد التي أذنت للنساء بمشاركة الرجال في العمل من أتعس خلق الله حالاً ، وأضيقهم عيشًا ، فلسن كما يقول الفيلسوف (فوربيه) أكبر المتصرين للنساء إلا : « **منكبات علي العمل في الخلاء عائشات في الحرمان والفاقة** » وكما يقول العلامة (برودون) : « **مثلهن في الفابريكا كمثل المشبك والبكرة** » .

وكما تقول مجلة المجلات في مجموعة سنة ١٨٩٧ : « **إن كثيراً منهن يشتغلن في أقسي الأعمال ، ولا ينلن إلا ما يساوى عشرين سنتيمًا في اليوم ، وليس شكل مأكلهن إلا العيش المطبوخ مع ثفل أوراق الشاي**» .

كل هذا لكونها لا تقوىٰ علىٰ مزاحمة الرجل أبدًا ، فتراها كلما همت بموضوع فيه بعض خير لها زاحمها الرجل فيه ، واستعان علىٰ السبق في تحسينه بقوة جلده وصبره ، حتىٰ في الخياطة وتزيين الرأس .

يقولون : وما تلك الدكتورات والمهندسات اللاتي نسمع عنهن ؟؟

نقول : أولئك أسعدهن الحظ بآبائهن الأغنياء ، فصرفوا عليهن ما يوازن جسمهن ذهبًا » وقليل ما هن بالنسبة لغيرهن من الفقيرات اللاتي يكدن يمتن جوعًا ومع ذلك، فهل هن طائعات لأحكام السنن الإلهية؟

أما كان يجدر بالدكتورة ، أو المهندسة أن تكون والدة مهذبة تلد خمسة دكاترة وخمسة مهندسين ينفعون النوع الإنساني » ويكثرون

النسل، ويعـملون على فلاح الأمـة ؟ كل هذه الأشكال تعـد تمرداً على سنن الفطرة ، ولا يصح الإتيـان بهـا دلالة على كمـال النوع الإنسـاني وترقيه .

* يقول المؤلف : « **ولكن ما الحيلة إذا كان نظام الوجود يقضي بأن كثيراً من النسـاء يعشن في الوحدة والانفراد ، ويسعين ويعملن لكسب قـوتهن وقـوت أولادهن ، وبعض أقـاربهن من القـواعـد العـاجـزين عن الكسب**» .

نقـول : الحيلة هي أن نتأثر من سوءِ حال أولئك النساء ، ونبرّهن على أنهن بفقرهـن وتعاسة حظهن قد أرغـمهن هرباً من الموت على عـصيان سنن الفطرة ، ونعطي هذا الشكل المحزن من الحيـاة الإنسانية حظه من التأثر والتحسر ، ثم نبحث على ما يخفف ذلك الويل الوبيل بالطرق الحكيـمة، لا أن نعمل على نشره بدعوى أنه مظهـر من مظاهر التمدن .

أنا أناشد كل ذي إحساس شريف أن يتفكر معي قليلاً في حالة امرأة مسترجلة أجبرها الحال السيئ والحظ المنكود إلى المعيشة بلا زوج ، أن تعمل وتكد طول نهارها تحت حرارة الشمس ، وفوق رمضاء الهجير ، لتكسب قليلاً من العيش لدفع أنياب الهلاك عن نفسها .

قلت : أناشـده أن يتفكر معي قليـلاً في هذه الحـالة المحـزنة ، ثم

ليخبرني ماذا يحس من رحمة في قلبه على ذلك الجنس الرقيق تدفعه إلى ابتكار أي وسيلة « ووسائل الحياة الطيبة غير محصورة » تمنع سريان هذا الأمر الخادش لوجه مدنية القرن العشرين ؟

أي قلب لا يتفتت إذا سمع الفيلسوف « فورييه » (وهو أعظم أنصار حرية النساء) ينادي في وسط بلاد تلك المدنية المادية صائحًا في وجه قومه : « **ما هي حالة النساء اليوم ؟ إنهن لا يعشن إلا في الحرمان، حتى في عالم الصناعة الذي ألمّ الرجل بجميع أنحائه لغاية الاشتغالات الدقيقة بالخياطة وصنع الريش ، أما المرأة فيراها الناس منكبةً على أشق الأعمال في الخلاء .**

ما هي إذن مصادر الحياة بالنسبة للنساء المحرومات من المال ؟ المغزل أم جمالهن إن كان لهن جمال ؟ نعم إن حيلتهن الوحيدة هي السفاد[1] العلني أو السرّي ليس إلا وهي الحيلة التي تنازعهن الفلسفة فيها للآن .

هذا هو الحظ التعيس الذي ألجأتهن إليه هذه المدنية ، وهذا الاستعباد الزوجي الذي لم يفكرن للآن في مهاجمته » .

إني أعيذ المرأة المسلمة أن تدفع بها الأحداث يومًا من الأيام إلى ورود هذا المورد الدامي ، وأدعو الله بكل عواطفي أن يهب الرجال حكمة ليحموها شر هذا الخطر المزعج يجره بذيله ذلك الشكل من التمدن المادي المتلاشي .

---

(١) الجماع .

قلنا : كل شيء في المرأة يشعر بأنها خلقت لغير الاشتغال بأشغال الرجال .

انظرها وهي حامل ، تراها في دور يجب عليها فيه أن تعتني بنفسها غاية العناية ، تجدها في دور الوحام شديدة التأثر بالمناظر المختلفة ، ولا سيما المخيفة أو المحزنة ، وقد أفرد الأطباء المؤلفات الضخمة في هذا الموضوع الهائل ، ثم تنتقل من دور إلى دور آخر حتى تلد ، فتقع في مرض حقيقي وتكون معرضة مدة للحميات المختلفة الأشكال والآثار على حسب استعدادها ومزاجها ، ثم ترضع فتكون صاحبة السلطة المطلقة على حياة ابنها بواسطة لبنها ، فقل لي بالله كيف يكون حال المرأة السياسية وهي في دور الوحام إذا هب أعضاء البرلمان عقب المجادلة في موضوع إلى الملاكمة والصياح كما يحصل كثيراً ؟! .

أو كيف يكون حالها من الانفعال والتحمس إذا قامت في وسط الأحزاب تثير العواطف وتستنزل المراحم لنسخ قانون ، أو تحوير مادة من لائحة وقام خطيب مصقع ففسق أقوالها وسفه حلمها ، وبرهن للمجلس بألف دليل على أنها على شطط عظيم كما يحصل كثيراً بين السياسيين ؟

إلى أي حالة يئول أمرها إذا كانت حاملاً ، وإلى أي درجة يفسد لبنها إذا كانت مرضعًا ؟! .

ثم إلىٰ حضيض تسقط صحتها وصحة طفلها إذا قامت وهي حامل تعتصب مع الرجال لتقليل ساعات العمل بين دوي البنادق وصلصلة السيوف الصوارم ؟

أليس كل شيء في المرأة يدل علىٰ أن الخالق الحكيم الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىٰ خصها للهُدُوءِ والسكينة ، وجعل كل شيء فيها ينافي الشغب والاضطراب ؟

إذا فرضنا وقامت الدنيا أجمع تَهِب النساء حقوق الاشتغال بأشغال الرجال علىٰ رغم أنف نظام الكون ، فهل يليق بأصحاب الدين الفطري أن يقلدوا الأمم الأخرىٰ في معارضة أحكام الدين الحنيف ؟

هل سدت علينا منافذ الرجاء بالمرَّة حتىٰ قمنا نقلد الأمم في أمراضها القتالة ؟

***

الفصل السابع

هل يستمر تداخل النساء في أعمال الرجال في بعض البلاد ؟ ؟

يقول خالق الكون كله جل وعلا : ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق : ١] .

ويقول العلماء الباحثون في أسرار الكون : « **إن في الكون نظامًا خاصا لو تعدى الإنسان حدوده ، أو لو همّ بنقضه تصدته أحداث من الطبيعة نفسها حتى تجليه عن ظهرها أو يستقيم** » .

والحياة الإنسانية من أول نشأتها إلى اليوم مدرسة كلية يتعلم منها الإنسان كل ما يحتاج إليه إذا أراد أن يهتدي إلى نهج الطريق .

أثبتنا في بحثنا السابق أن اشتغال النساء بأشغال الرجال مرض اجتماعي ، وتمرد على الفطرة ، وكان ذلك الفصل يكفي للدلالة على أن ذلك العصيان يستحيل بقاؤه مهما سترته القشور المزخرفة ، ولكنا لزيادة البيان نقول :

إن الذي نعلمه ، ويعلمه الخاص والعام ، وتشهد به الفطرة وكل ذرة من ذرات الوجود ، أن للمرأة (كمالاً) خاصًا بها لا يتأتّى لها الحصول عليه ألبتة إلا إذا صارت زوجة وأمًا تلد ، وتربي وتدبر البيت ،

وأن كل شيء يبعدها عن وظيفتها ينقص من كمالها ، ويؤثر عليها تأثيراً سيئًا .

ونعلم من جهة أخرى أن الإنسانية في رقي دائم إلى الأمام ، لا في تقهقر إلى الوراء ، ولا يكون هذا الرقي إلا إذا وافقت المحاولات الإنسانية جميع السنن الطبيعية .

وبناءً عليه فلا تكون الأمة كاملة إلا إذا توزعت فيها الأعمال على العاملين كل على حسب استعداده ووظيفته الكونية ، فإذا سمعنا أن في تلك الأمة مثلاً تهجر النساء البيوت ويعملن مع الرجال في أشق الأعمال وأقساها ، فلا يليق بنا ونحن أصِحَّاء الأبصار والأفئدة أن نعتبر ذلك كمالاً يجب السعي إلى تقليدهم فيه .

بل يجب علينا وجوبًا حتمًا أن نعتبر ذلك نقصًا ، ونسعى في تجنبه لأنه مناف للكمال الصحيح ، مهما كانت تلك الأمة مرتقية عنا في بعض مظاهر المدنية .

لأننا عهدنا أن مدنيات كثيرة قامت في العالم وملأت الكون نوراً وضياءً ، ثم تلاشت كأن لم تكن بسبب عصيان ذويها لقوانين الخليقة .

هنا يعترف حضرته معنا بأن (كمال) المرأة هو في أن تكون زوجة لها أولاد تربيهم ، ولكنه رجع فقال : « **وإنما الخطأ في أن نبني على ذلك ، أن المرأة لا يلزمها أن تستعد بالتعليم والتربية للقيام بمعاشها**

وما يلزم لمعيشة أولادها إن كان لها أولاد صغار عند الحاجة » .

نقول : إن حالة المسلمين الاجتماعية هي غير حالة الغرب من كل وجه ، حتى أن الباحث ليرى بالتأمل البسيط أن هذين العالمين لا يمكنهما أن يتحدا على أمر في شأن من الشئون العمرانية إلا إذا فني أحدهما في جسم الآخر وصار جزءاً منه .

وجملة حضرة المؤلف الأخيرة لو قيلت في بلاد الغرب لوجدت من كل فؤاد وتراً يهتز له بنغمة مخصوصة ، لا لأنها تشير إلى كمال يجب السعي إليه ، ولكن لعدم خلو بيت هناك إلا وفيه بنت أو امرأة تعمل عملاً خارجيًا لتكسب معيشتها مباشرة ، أو لتجمع مهرها الذي يجب أن تؤديه لمن سيتزوجها بها .

أما في الشرقي ، فإنه لم يزل من جهة النساء أقرب إلى كمال الفطرة ، فلا تقع منه هذه الجملة موقع القبول أبدًا ، بل بالعكس إن كل عائلة فيه تعد اليوم الذي تجبر فيه إحدى نسائها على العمل في الخارج أتعس أيامها » وتود أن لو تنجلي من على ظهر الأرض لكيلا تدرك تلك الحالة السيئة .

الغربي يعلم أن في بلاده نساء بلغن حدود الكثرة لهن أولاد صغار ، وهن من الفاقة والفقر بحيث يفضلن الفناء المظلم على هذه الحياة النكدة ، وكثير منهن يقتلن أنفسهن هربًا من الموت جوعًا ، فإذا

سمع مثل هذه الجملة أثرت على فؤاده ، وود لو يكون التعليم كذلك .

ولكن الشرقي الذي لم ير للآن ذلك الدور المحزن ، رغمًا عن هبوطه في كل حيثية ، فإنه ينكر هذه الجملة إنكاراً شديداً ، بفضل ما لديه من بقية تلك الروح الإسلامية الشريفة ، ويود أن لو يسعى الرجال في تخفيف آلام تلك النسوة بدواء آخر .

يظن بعض الناس أننا في جميع أشيائنا تابعون قدم أوروبا ، وماشون خلفها ، ويرى أنه يجب أن يكون الأمر كذلك لنتقدم .

ولكن أقول : إنها في طريق ونحن في طريق آخر ، وأصرح بأننا بما لدينا من العوامل الاجتماعية والأصول الحيوية الإسلامية (التي حمتنا للآن من الفناء في جسم أي أمة من الأمم ، كما حصل بالنسبة لغيرنا من الشعوب التي بادت بتأثير الفتوحات) لا نستطيع أن نكون كالغربيين ، إلا إذا تمثلنا في أجسامهم وصرنا بعضًا من كلهم ، وهذا ما أراه مستحيلاً مستحيلاً ، فإن روح الإسلام القوية أكسبتنا متانة لن ننسحق بعدها أبدًا ، متانة تسحقنا بذاتها قبل أن يسحقنا أحد .

إليك مثالاً لذلك : انظر إلى بعض أولئك الذين تعلموا في أوروبا ، وسحرتهم مموهات تلك المدنية المادية ، وتشبح في أذهانهم جمالها القشري فجعلتهم يقلدون أهلها في الملبس والمسكن والكلام

والسلام وفي كل شيء ، حتىٰ لو استطاعوا أن يقلبوا صورهم لفعلوا .

قلت : انظر إلىٰ هؤلاء نظرة ، ثم قل لي كيف تراهم ؟ وإلىٰ أي قبيل تستطيع أن تنسبهم ؟

هل هم شرقيون ؟

كلا ؛ لأنهم يسبون الشرق والشرقيين ، ويقبحون عوائد أهله أجمعين ، ولا يرون فيه إلا مظاهر التأخر والتقهقر .

أينما ولوا وجوههم تأففوا ، وحيثما وقفوا تحسروا .

ولكن هل هم غربيون ؟

كلا ، فإن وجوههم تشهد بغير ذلك ، وأعمالهم الجوهرية تنافي دعواهم بالفعل ، وإن كانوا يزعمون أنهم كذلك بالقول تجدهم بلا جد، ولا همة ، ولا أريحية ، ولا شيء مما ينفع أو يدفع .

لم ذلك ؟

لأنهم أرادوا أن يقلدوا الغربيين ، فوجدوا من طبيعتهم أكبر مانع لهم عن ذلك ، ثم لم يستطيعوا أن يرجعوا إلىٰ ما كانوا عليه بما اكتسبوه من التقليدات القشرية التي صارت لديهم ملكات ، فانسحقوا مكانهم علىٰ مشهد من أولي البصر والبصيرة .

أولئك بخلاف شبان بلغاريا والصرب مثلاً ، فإن أحدهم إذا قضىٰ

حياته المدرسية في باريس أو لندن أو برلين ، رجع إلى وطنه وصار مستودع الثقة ، ومحط رحال الآمال من بني جلدته ويكون جديراً بذلك لما يبديه من جلائل الأعمال ، وعلو الهمم ، ذلك لما بين هذه الشعوب من تشابه العوامل الحيوية .

هذه بديهة لو دقق فيها القارئ لرآها في عداد المحسوسات ، وبها وحدها يمكننا أن نفسر عدم صلاحية كثير من الشبان المسلمين الذين يتعلمون في أوروبا .

يقول قائل : كيف ذلك ولدينا من الشبان الذين تعلموا في أوروبا عدد ولو لم يكن كبيراً ، إلا أنهم أصبحوا قدوة للنشأة الجديدة في الأخلاق والهمم ؟

نقول : لا ننكر ذلك وهذا مما يقوي دعوانا ولا يفسدها ، غير أننا نرجو حضرة المعترض أن يدرس أولئك الشبان جيداً ليرى بعينيه أن تعلمهم في أوروبا لم يزدهم إلا تمسكًا بعوائدهم وعقائدهم ، وحنانًا على أبناء ملتهم فهم لم يأخذوا من أوروبا إلا علومها وفنونها ، تاركين لها مقابحها ومشائنها ، ولم يكسبهم مقامهم في تلك البلاد إلا معرفة بأن المدنية المادية لا تعلق لها إلا بسعادة الجسم الفاني ، وأنها ناقصة من الوجه الروحاني الذي هو مطلوب السعادة الكاملة ، والمدنية الفاضلة التي لم يزل يئن للحصول عليها هذا النوع الإنساني الولهان حتى إذا آبوا

إلى بلادهم جعلوا نصب أعينهم مجاراة تلك الشعوب المتمدنة في معارفها المادية ، وزادوا عليها روحانية الديانة الإسلامية التي تحث على طلب تلك العلوم وتستخدمها في إنزال الروح منازلها الكمالية .

فأما أمثلة هؤلاء الشبان في بلادنا فيعرفه المسلمون ولا ينكرونه ، وأما أمثلتهم في الخارج ، فبلاد الهند التي يمضي بعض شبانها المسلمين سنوات كثيرة في أعظم كليات لندن ، ثم يؤوبون إلى بلادهم وهم أشد تمسكًا بالإسلام ، وأكثر معرفة بفضائله ، وأكبر شغفًا بنشره من أولئك الذين لم يخرجوا من بلادهم ، ولم يحتكوا مع المتمدنين في أي شأن من الشئون الحيوية .

أما وجه قولنا أن هذه المشاهدة تقوي دعوانا وتؤيدها ، هو أن هؤلاء الشبان بتعلمهم في أوروبا لم يفقدوا شيئًا من شرقيتهم ، بل أدوا فرضين مهمين من فروض دينهم .

الفرض الأول : طلبهم للعلم في البلاد السحيقة : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] « **اطلبوا العلم ولو بالصين** » .

والفرض الثاني : السياحة في بلاد الغير والاعتبار بأحوالهم ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [الانعام : ١١] و ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج : ٤٦] .

لنرجع إلى ما كنا فيه من مسألة المرأة فنقول : إذا كان الشرقي لم يزل لليوم يحجر على امرأته وبناته الخروج من البيت للزيارات البسيطة ، ويدافع عن هذه العادة بكل قواه ، فكيف نطمع أن يعلم ابنته تعليمًا يعدها لأن تكون عاملة (في ورشة)، أو بائعة في محل تجاري ؟ إذا كان لم يزل الشرقي يحظر على امرأته وبناته أن يسمعن صوتهن لرجل .

فكيف نستطيع أن نقنعه بأن يرشح ابنته لأن تكون خطيبة في المجامع ، أو سياسية تبدي رأيها على ملأ الأحزاب ؟

كم من الزمن يلزمنا أن نمضيه لكي تستعد هذه القلوب الشرقية لأن تغير من اتجاهاتها في هذه المسألة مع علمك بأنها خالطت الأوروبيين أصحاب هذه العوائد مائة سنة ، ولم تزدد إلا رسوخًا في عوائدها ؟

إذا حكمت بأن نجاحنا مرتبط بهذه المسألة ، وأننا بدونها لن نقوم من وهدتنا أبدًا ، أفلا تسمح لي أن أقول : إننا نتلاشى (لا سمح الله) قبل أن نصل إليها ؟

ولكن لما هذا اليأس كله ؟ إذا كنا كلنا في وفاق بأن اشتغال النساء بأشغال الرجال داء اجتماعي شديد الوطأة ، فلماذا لا نستفيد من كراهة المسلمين له ، فنعمل على إزالته بدل نشره وتوسيع دائرته ؟ إذا كنا نعلم أن فساد الأمم وتلاشيها لا سبب له إلاَّ عصيانها لسنن الفطرة ، وتحققنا أن

مشاركة النساء للرجال في الأعمال الخارجية عصيان لا شبهة فيه ، وأن شريعة الله ستعيد في المستقبل كل شيء إلى وضعه الطبيعي بعد إيقاع العقاب الصارم على مخالفيه ، فلماذا لا نأخذ الأمر من أوله فنسعى لمداواة أمورنا بأقرب الطرق إلى السنن الإسلامية ، ونكتفي مؤونة ذلك العقاب المريع ؟

* * *

الفصل الثامن

هل تحتجب المرأة عن الرجال ؟

نحن بعد أن أوضحنا أن للمرأة (كمالاً) سامياً يجب أن تناله في الوجود ، وبرهنا بالأدلة العلمية التجريبية أن اشتغالها باشتغال الرجال، وطلبها لمعيشتها بنفسها فضلاً عن أنه يبعدها عن كمالها يقتل فيها سائر خصائصها ، التي هي سبب سعادتها ، ويعرضها لأشد أنواع الهبوط ، وأثبتنا بالبراهين الناطقة الحسية على أنها يجب أن تكون تحت كفالة الرجل، ويتعب ويدأب ليغذيها ويصلح من شأنها، وتبقى هي للتربية الطفلية .

قلنا بعد أن أوضحنا كل ذلك في فصولنا المتقدمة : وجب أن يكون للرجل حق مهم عليها بإزاء كل هذه الحقوق التي عليه لها ، وذلك الحق المهم الذي عليها له هو أن تعترف برئاسته ، لأنه من العبث بالنظام أن نكلف الرجل بكل تلك الواجبات ثم لا نهبه بإزائها ذلك الحق الطبيعي ، الذي هو نتيجة لازمة لكل تلك الواجبات التي يؤديها إليها ، بل إن ذلك الحق الذي للرجل على المرأة مما لا يحتاج إلى إيضاح ، فإنه فطري تحس به المرأة قبل أن يذكرها به مذكر ، ويشعر به الرجل شعوراً ضرورياً .

والدليل قوله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء : ٣٤] .

وبناء عليه ، فمسألة حجب المرأة أو كشفها صارت من خصائص الرجل مباشرة ، فهو إن شاء حجبها ، وإن شاء فعل غير ذلك ، (المراد قوامته عليها بحدود ما تبيحه الشريعة) .

ومن العبث المحض أن نكلف الرجل بكل تلك التكاليف المهمة ثم نسلبه كل حق على امرأته .

هذا فضلاً عن كونه إجحافًا مما لا يمكن تحققه في عالم الإنسان المبنية أفعاله كلها على الحقوق المتبادلة بين سائر أفراده .

فالمعترض على حق الرجل على المرأة يكون في الحقيقة معترضًا على السنن الإلهية نفسها ، والاعتراض على السنن كفر بالسنن ، ولو كان الإنسان قبل أن يطلب حصول شيء يتحرى ، هل موافق أم لا ، لوجب علينا أن نحذف من قواميسنا لفظة « مستحيل » إذ ليس المستحيل إلا المخالف لسنن الكون الإلهية .

ومن ضمن البراهين المحسوسة على أن حجب المرأة وكشفها من حقوق الرجل مباشرة ، هو أن محرري النساء إذا أبدوا أفكارهم وطلبوا طلباتهم لا يوجهون الخطاب إلا للرجل .

نفسه فقد كتب حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) يقول : « **وإنما نكتب لأهل العلم ، وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التي هي مستودع أمانينا في المستقبل ، فهي التي بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة**

تحل مسألة المرأة المقام الذي تستحقه من العناية والبحث » .

هل بعد هذا برهان قاطع على أن مقادير النساء بيد الرجال، يوجهونها كيف يشاءون، ويتصرفون في شئونها بما يريدون، إذ لو كان لهن حق طبيعي من هذه الحيثية له وزن في ميزان الوجود ، لوجه الخطاب إليهن بنبذ سيطرة الرجال عنهن ، بل لما انتظرن أن يقوم أحد بالدفاع عنهن مطلقًا .

وإني لا أعتبر كل طلب يقصد به صاحبه خروج المرأة عن طاعة الرجل إلا كطلب أولئك الكتاب الذين يكتبون ويبرهنون على أن اغتصاب تلك الأمة القوية لبلادهم هادم لاستقلالهم مجحف بحقوقهم .

فإن كانت تلك الأدلة من الشعوب المغلوبة تخفف من وطأة الأمم الغالبة بدون أن تكتسب الأولى حقًا طبيعيًا له وزن في ميزان الوجود أفادت كذلك كتابات محرري النساء .

على أن هذا قياس مع الفارق ، فإن أولئك الشعوب تستطيع أن تكتسب ذلك الحق الطبيعي بجدها واجتهادها ، فتتخلص من وطأة تلك الأمم بخلاف النساء .

فإن (كمالهن) يقتضي أن يخدمهن الرجال ، ويغذوهن ويكفوهن مؤونة المصارعة في الحرب المعاشية القاسية .

وهذه الخدمة تقتضي بلا شك أن يكون للرجل حق التحفظ ، والهيمنة على المرأة .

وثبت باستقراء تاريخ الكون وقوانين الحياة الإنسانية ، أنه لا توجد المساواة إلا مع تكافؤ القوة .

هذه البديهة يمكن أن يراها كل إنسان في كل شأن من شئون حياته وحياة الأمم .

إذن يجب علينا قبل أن نتكلم باسم المساواة أن نبحث ، هل هناك تكافؤ في القوة ؟

ولا يستطيع مجادلونا أن يدعوا أن هذا الاستقراء جائر ؛ فإن الجور هو أن تعطي حقوقًا متساوية لذوي قوة مختلفة .

والسبب في عدم فائدة أمثال هذه العبارات ، ليس ما ذكرناه فقط ، بل لكونها في واد وحقيقة الواقع في واد آخر ، فإن الخالق لم يخلق الرجل والمرأة إلا ليكونا شخصاً واحداً .

فالرجل في حد ذاته له نواقص كبيرة ، لا تكملها إلا المرأة ، وفي المرأة نواقص لا يكملها إلا الرجل ، بشرط أن هذه النواقص المتبادلة تتكامل من نفسها عند حدوث الاقتران مباشرة ، وتوحي طبيعة الحال لكلا الزوجين الواجب الذي عليه للآخر .

إذا تقرر هذا ، فكثرة الكلام في تحديد وجه المساواة بين شيئين كل منهما محتاج للآخر ليس له معنى ألبتة .

والبحث في مسألة استقلال كل منهما عن الآخر شيء لا أفهمه، ولا أستطيع أن أفهمه مطلقًا .

كيف يحسن بنا أن نعطي الاستقلال لشيئين خلقا ليكونا شيئًا واحدًا ؟ وكيف نحدد وجه المساواة بينهما ، وكل واحد منهما محتاج للآخر ، ولا يتم كماله إلا به ؟

ومن العجيب أن محرري النساءِ يستكبرون خضوع المرأة للرجل، ويعدونه استعبادًا وأسرًا ، ولا يتفكرون في إهلاك الرجل لنفسه ، وسعيه لتغذية امرأته ، ولا يعدونه شيئًا ! ! مع أنا لو قارنا الطاعة التي تؤديها المرأة للرجل بما يكابده الرجل من آلام الكد والكدح ومصائب الجسم والروح في سبيل راحتها ، لوجدنا أن الرجل أكثر عبودية للمرأة منها له .

وإن شوهد كثيرًا أن خضوع المرأة للرجل سبب للكثير من آلامها وأكدارها ، فذلك نتيجة الجهل المتبادل بينهما ليس إلا .

ولكن مع التهذيب والتربية ، يرتقي كل من المرأة والزوج في نظر بعضهما ، وتتعين أمامهما واجباتهما من نفسهما ، ويبعد من فكرهما كل شيء يقال له استقلال ، لأنه لفظ لا معنى له بين كائنين خلقا لأن يكمل أحدهما الآخر .

إذا تقرر هذا كله وثبت أن الرجل والمرأة غير مستقلين أمام

بعضهما ، بل هما شيء واحد ، فمسألة احتجاب المرأة وابتذالها صارت بالأقل حقًا مشتركًا بين الرجل والمرأة ، فليس لها وحدها أن تنبذه بدون إقرار الرجل على نبذه .

بقي علينا هنا أن نسأل : هل الحجاب علامة الذلة والأسر كما يقولون؟!!

وهل يمنع المرأة عن بلوغ كمالها ؟ !

وهل ينتظر زواله وتلاشيه ؟ !

فنقول :

* * *

الفصل التاسع

هل الحجاب علامة الأسر أو هو ضمانة الحرية ؟ ؟

درسنا في فصولنا المتقدمة ماهية المرأة وكمالها ، وبيَّنا بالأدلة التجريبية أن ذلك الكمال لا يتأتى لها إلا بعدم تداخلها في أعمال الرجال ، وبحثنا بالدقة المضار التي تنجم يوميًا من اختلاط الجنسين ببعضهما ، ونريد في هذا الفصل أن نبرهن على أن الحجاب هو الضامن الوحيد لاستقلال المرأة ، والكافل الفرد لحريتها ، ورد سيطرة الرجال عنها فنقول :

لا يجوز لنا بصفتنا باحثين في موضوع عمراني مثل هذا أن نغتر بأي مظهر من مظاهر هذه المدنية المادية المؤقتة ، ونتخذه قاعدة للحكم في شيء قبل تحليله إلى عناصره البسيطة تحليلاً دقيقًا .

نريد بهذه الجملة أنه لا يجوز لنا أن نعتمد على ما نراه من الحرية المموهة التي يتمتع بها نساء هذه المدنية ، فنحسب أن مظاهرها الفتانة صبغًا ثابتة تزيد بهجة ، ولا تزول بمرور الزمن .

هذه غلطة تكفي وحدها أن تقود الباحث رغم أنفه إلى مدركات سطحية لا معنى لها في ذاتها ، ولا تتفق مع حقيقة الواقع .

وإن وافقته في زمن من الأزمان فلن توافقه في مستقبل ليس

بالبعيد لعدم انطباقها على الفطرة البشرية ، فإن غيرة الرجل وإن دفنها رماد اللهو حينًا من الأحيان ، وسترتها بعض أشكال المدنيات مدة من الزمان ، فإنها لا تموت أبدًا .

بل يأتي عليها يوم تتقد فيه اتقادًا ، وتبعث أهلها لأخشن ما يتصور من مظاهر أسر النساء ، والتشديد عليهن .

كلامي هذا وإن ظهر خياليًا شعريًا لمن لم يلق نظرة عامة على مجموع أحوال الإنسانية والإنسان ، إلا أنه بالنسبة للبعض الآخر حقائق ساطعة ليست مقبولة للعقل فقط ، بل أرانا التاريخ أمثلتها في كل أمة .

فلنورد هنا مثالاً مما حصل في دولة الرومان ، وهي الدولة التي تولدت منها عموم الدول الأوربية المتمدنة فنقول :

نشأت دولة الرومان في روما في القرن السادس قبل الميلاد صغيرة فقيرة ، ثم شبت قرنًا بعد قرن حتى بلغت مبلغًا عظيمًا من المدنية ، وكان النساء فيها متحجبات ملازمات لبيوتهن .

* قالت : «دائرة معارف القرن التاسع عشر » :

« كان النساء عند الرومانيين محبات للعمل مثل محبة الرجال له، وكن يشتغلن في بيوتهن .

أما الأزواج والآباء، فكانوا يقتحمون غمرات الحروب ، وكان أهم

أعمال النساء بعد تدبير المنزل الغزل وشغل الصوف » .

* ثم قالت : « **وكن مغاليات في الحجاب ، لدرجة أن القابلة (الداية) كانت لا تخرج من دارها إلا مخفورة وجهها ملثم باعتناء زائد، وعليها رداء طويل يلامس الكعبين ، وفوق ذلك عباءة لا تسمح برؤية شكل قواما**»اهـ.

في ذلك الحين، حين احتجاب النساء ، برع الرومانيون في كل شيء : نحتوا التماثيل العظيمة ، وشيدوا الهياكل الفخيمة ، وفتحوا البلاد ، وملكوا العباد ، واستبدوا بصولجان الملك والعظمة دون سواهم من الأمم .

ولكن دعاهم بعد ذلك داعي اللهو والترف إلى إخراج النساء من خدورهن ليحضرن معهم مجالس الأنس والطرب ، فخرجن كخروج الفؤاد من بين الأضلاع ، فتمكن ذلك العنصر المهاجم (الرجل) لمحض حظ نفسه من إتلاف أخلاقهن ، وخدش طهارتهن ، ورفع حيائهن حتى صرن يحضرن التياترات ويغنين في المنتديات ، وساد سلطانهن حتى صار لهن الصوت الأول في تنصيب رجال السياسة وخلعهم ، فلم تلبث دولة الرومان على هذه الحالة حتى جاءها الخراب من حيث تدري ولا تدري، حتى إن القارئ للتاريخ ليندهش حينما يرى أن ذلك الصرح الروماني الباذخ قد هدمته المرأة حجراً بعد حجر بيديها

الرقيقتين، لا لسوء نية منها، ولا لكونها مستعدة للإفساد، بل لافتتان الرجال بها وتناظرهم عليها، هذه حقيقة سياسية لا مجال للجدال فيها.

* قال (لويز برول) في مجلة المجلات (مجلد ١١) تحت عنوان (الفساد السياسي) ما يأتي : « **إن فساد الأسس السياسية وجد في كل زمان ، ومن الغريب المدهش (تأمل) أن مظاهره في الزمن السابق مشابهة تماماً لمظاهره في الزمن الحاضر .**

بمعنى أن المرأة كانت العامل الأقوى في هدم الأخلاق الفاضلة » .

كان الأجدر بهذا الكاتب العمراني[1] أن لا يلصق تهمة الإفساد بالمرأة ، لأن الرجل هو الذي أفسدها وجعلها أحبولة للإفساد لمحض أمياله الدنيئة .

* ثم أخذ ذلك الكاتب يقارن بين العلامات المنذرة اليوم ، وبين ما كان في عهد جمهورية الرومان حتى قال :

« **لقد كان الرجال السياسيون في آخر عهد الجمهورية الرومانية يعيشون بصحبة النساء ذوات الطباع الخفيفة ، اللاتي كان عددهن بالغًا حد الكثرة ، فصار الحال اليوم (تأمل) كما كان في ذلك العهد ، ترى النساء اندفعن في تيار الحب البالغ حد الجنون ، وراء البذخ واللذات** »

اهـ.

---

(١) (كويزبرول) .

ماذا حصل في أمة الرومان المشهورة بحب المجد والعظمة فأنساها سابق تاريخها حتى تهدمت صروح عزها أمام أعينها بدون أن تجد من نفسها الغيرة عليها ؟

وكيف يتصور أن أمة الرومان التي كانت في أيام عظمتها مغالية في حجب النساء تسمح لهن بعد ذلك أن يتسلطن على رجال السياسة ، ويعزلنهم وقتما أرادوا ؟

ما هذا الانتقال العجيب من حالة إلى أخرى ؟ ألا يوجد بينهما تدريج طبيعي ؟

نعم إن ذلك الفساد النسائي نمى على حسب القاعدة الطبيعية : بدأ صغيراً حقيراً ، ثم استطار شره حتى صار داءً عضالاً فتك بالجسم كله دفعة واحدة .

* قالت (دائرة معارف القرن التاسع عشر) : « **ولكن لم يسد هذا الحب الجنوني للترف بالنسبة للنساء إلا في عهد الإمبراطورية .**

أما في الأيام الأولى للجمهورية ، فقد كانت المرأة ملازمة بيتها تغزل فيه الصوف .

ولكن البذخ تسرب إلى روما شيئًا فشيئًا ، حتى قام (كاتون) ينذر بالخطر المحدق الذي سيلتهم كل شيء « مثل كاتون مثل المدافعين عن

الحجاب اليوم ، فإن التاريخ يعيد نفسه » ، وبعد ذلك بقليل لم يقف البذخ والترف عند حد » اهـ .

* ثم أخذت (دائرة المعارف) تسرد أنواع الألبسة ، وأصناف الزينات النسائية مما لا فائدة من ترجمته هنا .

فلننظر الآن ماذا قال (كاتون) لقومه ، وكيف أنذرهم بخطر خلع الحجاب ، وكيف صدقت أقواله ؟

كل هذه حقائق تاريخية حصلت لسوانا ، فالواجب علينا معرفتها جيداً لنستطيع تجنبها ، أو بالأقل لنعمل ما نعمله ونحن عارفون بأننا في سبيل الخطر .

روت (دائرة معارف القرن التاسع عشر) : أنه لما حصلت لدى الرومانيين ثورة يقصد بها نسخ القانون الذي كان يحدد بذخ النساء وتبرجهن ، قام (كاتون) وهو ذلك الروماني المشهور بالفلسفة والحكمة بين جمهور الرومانيين في القرن الثاني قبل الميلاد وقال :

« أتتوهمون معشر الرومانيين أنه يسهل عليكم احتمال النساء والرضاء بهن إذا مكنتموهن من فصم الروابط التي تقيد استقلالهن وتخضعهن لأزواجهن ؟ ألم يصعب علينا حتى مع وجود هذه القيود إلجاؤهن إلى أداء واجباتهن ؟ أما ترون أنهن سيصرن مساويات لنا، وسيوقعننا تحت نيرانهن ؟ أي حجة معقولة يمكنهن بسطها لتبرير اجتماعهن الثوري ؟

لقد أجابتني واحدة منهن قائلة : إننا نريد أن نكون متلألآت في الذهب والأقمشة القرمزية ، وأن نتمشى في طرق المدينة في أيام الأعياد وسائر الأيام الأخرى ، وأن نركب في العربات الفخمة لأجل أن نظهر انتصارنا على ذلك القانون المنسوخ : « الذئ يجبرهن علي عدم الابتذال» ، وأن نتمتع بحرية انتخابكم « ما أشبه اليوم بالأمس » ونريد أيضاً أن لا تضعوا حداً لمصاريفنا وبذخنا .

فيا أيها الرومان ، لقد سمعتموني كثيراً ما أشكو من إسراف الرجال والنساء والعامة والمتشرعين أنفسهم أيضًا ، ولقد سمعتمونى كثيراً ما أقول أن الجمهورية مصابة بدائين متناقضين : الشح ، والبذخ ، وهما الداءان اللذان قلبا الممالك العظيمة رأساً على عقب » .

* ثم أردفت (دائرة المعارف) هذه الخطبة بقولها : «إن (كاتون) لم ينجح في دفاعه عن ذلك القانون ، ولكن تحققت إنذاراته تماماً » .

* ثم قالت بالحرف الواحد : « وفي هيئاتنا الاجتماعية الحاضرة التي فيها النساء يتمتعن بحرية مفرطة (تأمل جيدًا) نرى دناءة ذوقهن ، وميلهن الشديد الذي يحملهن دائمًا على الاشتغال بجمالهن وبكل ما يزيد حسنهن ورواءَهن ، كل ذلك أكثر خطراً وهولاً مما كانت عليه الحالة في روما » انتهى .

دعنا الآن من هذا وهلم ننظر ماذا حصل بعد فساد الملك الروماني ، وتغلغل الخلل فيه ؟ هل استمرت النساء متلألآت في الذهب والأقمشة القرمزية رائحات غاديات في الطرقات ، وراكبات العربات الفخمة كما كان شأنهن في أيام عز المملكة الرومانية ؟ .

كلا ، ولكن رأينا الناس أسرفوا في هضم حقوقهن ، والحط من مقامهن حتى حرموا عليهن أكل اللحم والضحك والكلام ، وغالوا في ذلك حتى وضعوا في أفواههن أقفالاً متينة يسمونها (موزلبير) ، لافرق في ذلك بين عالٍ ووضيع أو عالم وجهول ، ثم سرى أسرها إلى أكثر من ذلك ، حتى اجتمع في روما ذاتها مجمع في القرن السابع عشر مكون من فطاحل الرجال ، وطرحت فيه هذه المسألة : هل للمرأة روح؟

وإني لو أردت أن أشرح للقراء كيفية تحقيق الجرائم على النساء والآلات المختلفة والأساليب الشيطانية للتعذيب ، لما وجدت من نفسي الجلد على وصف هذه المظالم المرعشة ! ثم لو كلفت أحد النقاشين برسم الهيئات بذاتها تمثل النساء في حالة صب القطران على أجسامهن ، أو ربط أرجلهن في خيول مختلفة وتركها وشأنها تركض إلى كل جهة لتمزقهن تمزيقًا ، أو ربط جماعة منهن في سارية وتحتهن نار هادئة مدة أيام مديدة ليمتن على تلك الحالة بتساقط لحومهن وشحومهن ، أو . . . . أو . . . . مما يذهب بالفؤاد حسرة .

قلت : لو كلفت أحد النقاشين فرسم لي ذلك من مجلة المجلات

(مجلد ١٥) لرأى القراء منظرًا لا يذهب عن فكرهم أبدًا ! منظرًا يريك إلى أي حالة وصل أسر الرجل لهذه المرأة المسكينة .

الناظر لهذه الانتقالات يندهش ، ويأخذه العجب ، ويسائل نفسه قائلاً : كان النساء بالأمس يمرحن فرحات بما أوتينه من الحرية والسلطة على الرجال فكيف صرن اليوم موضوع أقسى المظالم ومحل البهيمية البشرية البالغة حد الكفر والجحود ، ما هذا التحول العجيب ؟ ما هذا التبدل الذريع ؟ ما الذي هدم تلك الحرية الأولى ، ووسم وجه المرأة بميسم الأسر والعبودية لهذه الدرجة الوحشية ؟

كل هذه أسئلة يلقيها الناظر في التاريخ على نفسه ، ولا يستطيع إدراكها إلا إذا ذهب فنقب في أصول علميّ النفس والعمران ، وهو بحث طويل الذيول نقول لك زبدته في كلمتين :

لما امتد ملك الرومانيين ، ونالوا بسطتي : العظمة ، والنفوذ على الأمم ، ولم يبق لهم في الأرض مُناظر ، تداخلهم حب الترف والرفاهية وهما لا يتمان إلا باختلاط الجنسين معًا ، وساعدهم على ذلك ما كانت علقته أذهانهم من تعاليم ملحدة اليونانيين ومقلديهم من الرومانيين أيضًا ، فشرعوا في كشف الحجاب عن نسائهم ، وترقوا في ذلك شيئًا فشيئًا حتى صرن المسيطرات في الأمور السياسية ، وحصل في هذا الاختلاط من الدنايا والمقاذر ما أكره أن يكتبه قلمي هذا ، فماتت

هممهم ، وخارت عزائمهم ، وتسفلت نفوسهم ، فوقعوا في التناظر ، والتسافك ، فازداد الفساد فيهم نشوبًا ، وحدثت في أثناء ذلك أحداث ، غيرت اتجاهات الأفكار بالمرة ، وأشربت النفوس أن النساء سبب ذلك الفساد كله ، فأخذ الحقد عليهن يتزايد شيئًا فشيئًا ، والتضييق يشتد يومًا فيومًا ، حتىٰ وصل الأمر إلىٰ ما وصفت لك من حالة القرون الوسطىٰ ، لغاية القرن السابع عشر ، ومقدمة الثامن عشر ، وأرىٰ الرجال اليوم في المغرب يريدون أن يعيدوا ذلك الدور بعينه ، بما يخترعونه يوميًّا من أسباب فتنة النساء والافتتان بهن ، وما يبتكرونه من ضروب الوسائل لمهاجمة عفتهن وطهارتهن ، وإيقاعهن في مثل ما وقع فيه أخواتهن الأقدمون .

وقد أدرك ذلك عقلاؤهم وفلاسفتهم عمومًا ، وصار من الوضوح بحيث يكتب في (دوائر المعارف) كما مرَّ بك وسيمر بك أكبر من ذلك .

فإذا كانت المرأة المسكينة ألعوبة في يد الرجل لهذه الدرجة ، يحبسها ما دام متدينًا ثم لما يداخله حب اللهو والترف يخرجها ليلعب بضعفها ، ثم لما يفتنها ويتلف آدابها بما يخترعه لها من أنواع البذخ والزينة ، يراها حملاً ثقيلاً عليه فيرجعها إلىٰ حبسها بأشد مما كان .

قلنا : إذا كان حال المرأة كذلك في يد الرجل ، **فاحتجاب المسلمة خير كفيل لها من الوقوع في مثل هذه الحالة .**

فقد حاطها الإسلام بضوابط حكيمة رسخت في أعماق القلوب، لا يستطيع المسلمون هدمها، إلا إذا غيروا دينهم وبدلوه كله .

ألا ترى أنه قد مضى على المرأة المسلمة نحو من ثلاثة عشر قرنًا وهي محفوظة من كل الانقلابات التي طرأت على غيرها من نساء العالم كما مرّ بك طرف منه .

فأي نعمة أكبر من نعمة الحجاب، إذا كان هو المانع للمرأة من أن تكون ألعوبة في يد الرجل وعرضة لأهوائه يصرفها كيف يشاء ؟

قل لي أي مانع حمى النساء المسلمات من مثل تلك القسوة التي التهمت أخواتها في الغرب قرونًا مستطيلة غير هذا الحجاب ؟

* يقول حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) : **« أن في أوروبا أحزابًا تطلب مطالب مجحفة ومع ذلك لم يخطر على بال أحد منهم أن يطلب حجاب النساء، بل نرى الأمر بالعكس، فإن المتطرفين من أرباب المذاهب لا يطلبون التوسع في حرية المرأة والزيادة في حقوقها إلى أن تصير مساوية للرجل فهم على شططهم متفقون في ذلك مع أرباب المشارب المعتدلة فما هو سر هذا الاتفاق وما سببه »** ؟

أما نحن فنقول : إن مؤسس فلسفة العصر الحاضر (أجوست كونت) وجميع الحسيين من فلاسفة الوقت، وهم كبار رجاله المعول عليهم في الحكم على حقائق الأشياء يرون أن المرأة لم تنل فقط قسطًا

أكبر مما يلزم من هذه الحرية المموهة ، بل يرون أيضًا أنها خرجت عن حدودها الطبيعية ، وقد مر بك من أقوالهم في الفصول السابقة ما يثبت ذلك .

وقد ورد في « دائرة معارف القرن التاسع عشر » شكوىٰ مؤلمة من هذا القبيل ـ ولدينا عشرات من نوعها من أقوال أكبر فلاسفة العصر .

* قالت عقب ذكرها الخراب الذي طرأ علىٰ روما بسبب الافتتان بالنساء «**وفي هيئتنا الاجتماعية الحاضرة التي فيها النساء يتمتعن بحرية مفرطة** (وصاحب الدار أدرىٰ) **فإن دناءة ذوقها ،وميلها الشديد الذي يحملها دائمًا إلى الاشتغال بجمالها ، وبكل ما يزيد حسنها ورواءها كل ذلك أكثر خطرًا وهولاً مما كانت عليه الحالة في روما** » .

هذه الجملة ربما يسمعها الشرقي فيدهش ، لأنها بخلاف ما يظن (وله العذر في ذلك) ، فإنه طالما حسن ظنه بكل شكل من أشكال هذه المدنية ، وتوهم أنها تعلو عن مدارك الشرقيين ، وتسمو عن متناولهم ، وأن ليس لهم حق الانتقاد عليها بوجه ما .

* ثم قالت « دائرة المعارف » بعد أن وصفت من الأحوال ما وصفت : «**نعم أنا لسنا أول من لاحظ هذا الأثر السيئ الذي يحدثه حب النساء للزينة يومًا فيومًا على أخلاقنا** (تأمل) ، **فإن أشهر كتابنا لم يهملوا الاشتغال بهذا الموضوع الكبير ، وكثير من أقاصيصنا التي قوبلت**

بالاستحسان العام قد وصفت بطريقة مؤثرة الخراب الذي يجره على العائلات الشغف الجنوني بالتزين والتبرج ، فكيف النجاة من هذا الداء الذي يقرض مدنيتنا الحالية ، ويهددها بسقوط سريع جداً ، وإن شئت فقل بانحطاط لا دواء له » .

فإذا كانت أوروبا مع قوتها ومنعتها ووسائلها تنادي بلسان دوائر معارفها وأشهر كتابها بالويل والثبور من تبرج النساء ، بحيث رأت أن حالتهن تهددها بسقوط سريع جداً ، فما بالك لو كان الشرق مصاباً بهذا الداء نفسه مع ضعفه اليوم ؟

يراني القراء لا أختار الحجاب للنساء طلبًا لعفتهن ، ولا أريد أن أطلبه لهذا الغرض ، لأنه هضم لحقوق ذلك الجنس الرقيق ، صاحب العواطف الفاضلة ، فإن الغريزة الأدبية لدى النساء أسمى منها لدى الرجال يقينًا ، وأعراضهن أطهر من أعراضهم في الجملة .

وإنما أختاره لأنه الحصن الحصين الذي يأمن فيه النساء غائلة الرجال ، وشرتهم فإنهم اعتماداً على أن ليس في تركيبهم ما يفضحهم لو خرقوا سياج العفة يومًا ، أو كل يوم تراهم يتكالبون بنهمة إفراطية على إغراء النساء بكل حيلة ، وبكل وسيلة .

لأنه ثبت باستقراء حوادث العالم أن الرجل هو المغري للمرأة على ترك الحجاب خدش وجه الأدب عندها .

حتى إن جريدة المقطم التي ندَدت بالحجاب من وجهة عمرانية[1] في ٨ فبراير سنة ١٩٠١ تشهد بهذه الحقيقة الجلية فقد قالت :

« **وتاريخ كل هيئة اجتماعية يشهد أن الرجل هو المهاجم لفضيلة العفة ، والمرأة هي المدافعة عنها** » انتهى .

إذن أليس من العدل أن نبحث عن وسيلة نمنع بها شرة هذا الرجل الغشوم القاسي عن هذه المرأة الرقيقة الجانب ؟

هل من العدل أن نعرضها لمخالب هذا الرجل الظلوم وحِيَله ، ثم نكلفها بتبعة خرقها لسياج العفة ؟

كيف يليق بنا أن نؤاخذ المرأة على عدم العفة إذا وقعت في شراك الرجل ، وهو الكائن الذي لا تنجو من بين يدي حيله الشيطانية الأسود في آجامها ، ولا الثعابين في أوكارها ، ولا العقبان في شواهقها ؟

ماذا يريد الناس من المرأة ؟ . . . أيريدون أن تكون ملكًا في عصيان شهواتها ، أو جمادًا في كبح جماح أهوائها ؟

ألا يعد هذا من أشد ضروب القسوة ؟

ألا يعتبر من أكبر أنواع الأسر ؟

يقولون : ولم لا تشير بحجب الرجال ؟

أليس حجبك للنساء عنوانًا على هضمك حقوقهن ؟

أقول : حيث ثبت أنه لا مناص من عزل الرجال عن النساء : « انظر

(١) أي : اقتصادية .

فصولنا السابقة واللاحقة » وأن وظيفة المرأة منزلية محضة ، وأن اشتغالها خارج بيتها خلل اجتماعي خطير بخلاف الرجل ، فإن شئون حياته تقتضي المحاولات الخارجية ، لزمنا اتباع أخف الضررين ليس إلا .

وإلا لو قام أحد أصحاب الأفكار وابتكر شيئًا يكلفه الرجال لقطع هجومهم عن المرأة .

فإن المسلمين أول الخاضعين لذلك التكليف في سبيل صيانة هذا الجنس الرقيق :

تقول جريدة المقطم : **« لأنه في الهيئة الاجتماعية لا يثبت للحجاب فضل في حفظ العفاف ، والشاهد على ذلك أنه ليس بين الكتاب كاتب يدعي أن بنات المدن المتحجبات أعف وأطهر من بنات الريف اللاتي لا يتحجبن ، وأن عرض الفلاحة والبدوية غير مصون كعرض المحجبة »** .

نقول : لا ينكر أحد ذلك ، ولكن لا يحسن أن يغيب عن فكرنا أن الفلاحة والبدوية المكشوفتين هما في أحط أدوار تنازع البقاء والحرب المعاشية ، وقد أثبتت البسيكولوجيا (علم النفس) أن الإنسان وهو في تلك الحالة لا يكاد يفكر إلا فيما يحفظ شخصه من العطب ، وبناء على هذا فمثل هاته النسوة ليس لديهن وقت تثور عليهن فيه عوامل اللهو وترغمهن على الخضوع لمؤثرات أهوائهن ، فتراهن يشتغلن مع أزواجهن أو آبائهن طول النهار حتى إذا جاء الليل طالبتهن أجسامهن بالراحة من جهادهن الهائل .

ولذلك ترى الفلاحة أو البدوية بمجرد نوالها ما يغنيها من المال

تجعل همها الأول وضع الحجاب على وجهها ، والتستر عن أعين الرجال .

* أما قول المقطم : « **ولما كان الرجل هو العنصر المهاجم لفضيلة العفاف عند انحلال ربط الآداب ، والمرأة هي المدافعة عنها كما قدمنا، فالعقل يقتضي تقوية قواها العقلية مع قواها الأدبية ، وتوسيع إدراكها واختبارها حتى تعرف كيف تحفظ منزلتها من الفضيلة والكمال** » .

فنجيب عنه بقولنا : إن هذا النوع من التربية يستحيل أن يصح أن يبني عليه قاعدة عمومية ، ومع ذلك فإن هذا الحجاب المعنوي الذي يشير إليه أنصار الابتذال ، أشد على المرأة من ذلك الحجاب الرقيق بما لا يقدر .

فانظر كيف بلغ إجحاف الرجال بالنساء ! يعترفون بأنها المهجوم عليها من العنصر القوي ، ومع ذلك يريدون أن لا تستتر عنه بمانع مادي يستوقفه عند حده .

بل يريدون ذلك الحجاب أدبيًا محضًا ، أي من النوع الذي يحجب الفلاسفة عن محبة الدنيا الفانية ، ويحول بينهم وبين هوى نفوسهم، أعني يريدون أن تكون المرأة ملكًا لا يطاوع همسة من همسات بشريته ، ولو كانت مهجومًا عليها من كل جانب .

لماذا لا يهبون المرأة حجابها المادي لتكتفي هي والرجل مؤونة هذا الجهاد الهائل ؟

لماذا لا يوفرون على المرأة وقتها الذي فيه يلزم أن تصارع فيه هذا الرجل الظالم في ميدان هذه الحياة الكدرة ؟

يقول قائل : لقد غلوت غلواً كبيراً ، وأفرطت في دفاعك إفراطًا شديداً ، وأتيت بما يؤخذ منه أن ليس للرجال شغل شاغل ولا همّ متواصل إلا التحايل على النساء وإغرائهن ، مع أن التربية تعمل العجائب على نفس الإنسان ، والمدنية تكسبه من شرف النفس ، وعلو الهمة الحلل الحسان . . . إلخ إلخ .

نقول : هذه ألفاظ نسمعها ، ولا نرى مدلولاتها في أي بقعة من بقاع الأرض .

ولو صح أن التربية والتهذيب تقوم مقام الحدود المادية في كبح إفراطات الإنسان وتعدياته، لصحت نظريات المذاهب المتطرفة بأسرها .

فإنهم يقولون أيضًا : إن ذلك القانون القائم والقانونيين الذين يقدسونه ويحترمونه وتلك السلطة التي تهيمن على مقادير البشر ، ليست إلا موانع تمنع رقيهم في مدارج الكمال الصوري والمعنوي .

ولكن لو خلى الإنسان لتأثير مواهبه الفطرية ، لنمت فيه العواطف الفاضلة من ذاتها ، وبتأثير الفواعل الطبيعية المنتشرة في الكون ، وماتت فيه كل تلك الأهواء الخارجة عن حدود الاعتدال بتأثير تلك الفواعل الطبيعية أيضًا .

ويقولون : إن هذه القوانين التي تزعمون أنها تقيم دعائم العدل في البلاد ، وتسوي بين أفراد العباد ، وتردع الظالمين عن الظلم والإجحاف ، وتكبح جماح المعتدين عن تخطي حدود الإنصاف والانتصاف ، لا أثر لها إلا زيادة عدد المجرمين ، ونشر القسوة والخشونة بين العالمين .

قلنا : لو صح أن التربية تقوم مقام الحدود المادية في تعديل خلق الإنسان ، لصحت كل نظرية تستند عليها في تحقيق نفسها .

أما أنا فأقول : أرني أمة من الأمم منعت التربية فيها هذا الرجل القاسي عن الانصياع لأمياله البهيمية ، ووقفت دون مقارفته لمطالبه الحيوانية ؟

هذا هو التاريخ بين أيدينا ، وهذه الأمم والنحل أمام أعيننا ، وكلها أدلة ناطقة شاهدة بأن التربية لم تمنع الرجل (أي الرجل الغاوي في سبيل الغي والفساد) يومًا واحدًا عن غشيان القبائح وإتيان المنكرات ، ولم تليّن فؤاده الحديدي لإيثار الفضيلات على الرذيلات .

ولو كنا ممن يتسلى بالخيالات ، لعلقنا على التربية وحدها أكثر مما يعلق غيرنا .

ولكنا نحب أن لا نتخطى دائرة التجارب الحيوية قيد شبر ما دمنا نحب أن نقول ما يسمع ، وننشد ما يمكن الحصول عليه .

دونك مثالاً محسوساً يريك أن تربية الإنسان وحدها مع انطلاق أمياله عن الحدود ، وانفراط مواهبه عن القيود غير كافية في تحسين حاله التحسين المطلوب .

وذلك أنك ترىٰ الرجل في البلاد الأوروبية يُنهىٰ عن تعاطي الخمر وهو طفل في البيت ، وفتًى في المدرسة ، ورجل في العالم ، بواسطة الجرائد والمجلات والكتب والخطباء والوعاظ ، ويرىٰ بعينيه ضحاياها الفظيعة ، ويحس من نفسه بالفقر والفاقة والمرض ، ويقدَّم إليه صور الأعضاء التي فتكت بها من جسم غيره في شكل يذهب باللب رعبًا ، ومع ذلك تراه منكبًا عليها ، بائعًا حياته في سبيلها ، مترقيًا فيها يومًا بعد يوم .

فماذا عملت التربية ، وأين أثر التهذيب ؟

أليس هذا دليلاً حسيًا يراه كل ناظر علىٰ أن هذا العنصر المهاجم (الرجل) لا تستوقفه التربية عند حده مهما بلغت من علو الشأن ، إلا إذا شفعت برادع الدين الإسلامي الذي يمنعه عن مقارفة المقاذر والجري في أعقاب الدنايا ؟

وإذا كان كلف العنصر المهاجم بلغت هذا المبلغ بالنسبة للخمر ، وليس لها من تركيبه مطالب ، فإلىٰ أي حدّ يبلغ هذا الاندفاع وراء شهوته البهيمية التي لها من تركيبه سائق شديد الشكيمة ؟

بناء على كل هذا ، فالمسلم لا يحجب امرأته أسراً لها ، ولا احتقاراً لكرامتها ، ولا عدم ثقة بها ، ولكن أنفة عليها ، وحماية لها من هذا العنصر المهاجم الذي تجرد من أخلاقه الإسلامية ، الذي دل التاريخ على أنه هو الذي يغري المرأة ، وهي التي تدافع عن نفسها دفاع الأبطال .

والمرأة المسلمة لا تحتجب علامة على أنها ذليلة حقيرة غير موثوق بآدابها . بل إشارة إلى كونها عزيزة الجانب منيعة الحوزة مدافعة عن نفسها ضد العنصر المهاجم بسلاحين قويين : بآدابها المعنوية ، وحجبها الإسلامية ، ليكون يأس الرجل عنها تامًّا من كل وجه .

هل بعد هذا ينصح الرجل لامرأته بخلع الحجاب ، أو تستحسن هي خلعه من تلقاء ذاتها ؟

يستهجن بعض الناس الحجاب ، ويعده بقية من بقايا التوحش ، كما يستهجن بعض أصحاب التطرف في أوروبا السلطة والحكومة والقوانين ، ويعدونها بقية من بقايا الهمجية الأولى ، ولكنا لا نعلق على استحسان بعض الناس ، أو استهجانهم قواعد اجتماعية نسير على موجبها ، فإن من الأمم من يستهجن بياض الأسنان ويصبغونها بالسواد ، ومنهم من يستحسن وشم الجسم كله ويعده من أحسن ضروب الزينة ، ولكن العقل والتمسك بأصول الإسلام لهما الشأن الأول في تبرير

أعمال الإنسان . فلنعرض أحوالنا عليهما دائمًا ، وأحوال الإنسانية ، كما قلنا مدرسة كلية يتعلم الإنسان فيها كل ما يلائمه وما لا يلائمه .

وإذا استهجن بعض الناس الحجاب ، وعدوه أسرًا ، فإن أصحاب الحجاب يستهجنون الابتذال والتبرج ، ويعدونه أشد من ذلك ، ونحن بعد ما تبين لنا أن الحجاب علامة العزة ، وإباء النفس ، وأنه الضامن الوحيد لاستقلال المرأة وسعادتها ، ننظر الآن هل هو مانع كمال المرأة ؟

***

الفصل العاشر

هل الحجاب مانع كمال المرأة ؟ ؟

عـهدنا الإنسان في كل دور من أدوار حياته إن أحب شيئًا لم يصعب عليه إقامة ألف دليل على حسنه وجماله ، وإذا كره شيئًا لم يعز عليه أن يطبق الدنيا أدلة على قبحه وفساده ، ولولا أن استقراء التاريخ شاهد عادل لأصبحت الحقائق أبعد شيء عن الإنسان في هذا العالم ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف : ٥٤] .

* يقول حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) : «**أما الحجاب فضرره أنه يحرم المرأة من حريتها الفطرية ، ويمنعها من استكمال تربيتها ، ويعوقها عن كسب معاشها عند الضرورة ، ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والأدبية ، ولا يتأتى معه وجود أمهات قادرات على تربية أولادهن ، وبه تكون الأمة كإنسان أصيب بالشلل في أحد شقيه** » .

أما أنا فأقول : أما الحجاب (بناءً على براهيني الحسية السابقة) ففوائده أنه يمتع المرأة بحريتها الحقيقية ، وقد علمت ما هي تلك الحرية .

ويمكنها من استكمال تربية نفسها تربية أموية . ويعوقها عن مشاركة الرجال في أعمالهم ، وهو الأمر الذي نخر عظم هذه المدنية المادية ، بشهادة علمائها في القارتين الأوروبية والأمريكية .

ويجبر أهلها وحكومتها على ضمانة معاشها بالطرق الحكمية . ويمتع الزوجين بلذة الحياة الزوجية ، ويتأتى معه وجود أمهات قادرات على تربية أولادهن تربية إسلامية ، وبه تكون الأمة كإنسان صحيح البنية ، له أعضاء ظاهرية ، وأخرى باطنية .

ونحن أيضًا كان يمكننا بغاية السهولة أن نقول : « أي مصلحة للرجل أعظم من أن يعيش وبجانبه رفيقة تلازمه في الليل والنهار ، في الإقامة والسفر ، في الصحة والمرض ، في السراءِ والضراءِ » رفيقة ذات عقل وأدب ، عارفة بحاجات الحياة كلها ، تهتم بكل شيء يمس بمصلحة زوجها » ومستقبل أولادها ، تدبر ثروته ، وتحافظ على صحته ، وتدافع عن شرفه ، وتروج أعماله ، وتذكره بواجباته ، وتنبهه إلى حقوقه ، وعرف أنها باجتهادها تجد في منفعتها كما تجد في منفعة زوجها وأولادها ؟

وهل يسعد رجل لا يكون بجانبه امرأة يهبها حياته » وتشخص الكمال بصداقتها أمام عينيه ، فيعجب بها ، ويتمنى رضاها ، ويتوسل إليها بفاضل الأعمال ، ويدنو منها بعقائل الصفات ومكارم الأخلاق ، صديقة تزين بيته ، وتبهج قلبه ، وتملأ أوقاته ، وتذيب همومه » ؟

قلنا : كان يمكننا نحن أيضًا أن نقول مثل هذا الكلام لأنه أحسن ما يأخذ بالفؤاد ، ولكنا في مقام عمل وتحقيق ، لا في مقام تمنٍّ وتأميل ،

فإنه لا يوجد في المسكونة رجل إلا وفي مخيلته مثل هذه الأماني وزيادة، ولكنه لا يرىٰ لها أدنىٰ تحقق في الخارج ؛ لأن مقاليد الوجود ليست بيد الإنسان ، ولو نال كل متمن أمنيته لما وجدت علىٰ ظهر الأرض رجلاً يشكو من شيءٍ مطلقًا . ولو كان إصلاح الأحوال الشخصية يتأتىٰ بمثل هذه الوسائل لكان الأمر أسهل ما يكون علىٰ الكاتب ، فقد كنا نستطيع أن نقول مثلاً : أي مصلحة للرجل أعظم من أن يعيش في وسط حديقة غناء ، فيها قصر يناطح السماءَ ، وبين يديه من الخدم والأتباع ما ينتظرون أول إشارة تصدر منه لترويح نفسه ، وتفريج غمه ، وأن يكون واحدًا من أصحاب الهمم العالية والأفكار السامية ، فيؤدي لجامعته وملته أشرف الخدم ، التي تخلد لصاحبها في بطون التواريخ اسمًا يضرب به المثل ، ويتخذ مثالاً للحث علىٰ العمل ، وأن يكون له أولاد يربيهم علىٰ مبادئه الشريفة تربية ترشحهم لمثل ما هو فيه من طيب الحياة وعلو المقام .

وأن يهبه الله حب الاعتدال في جميع أموره ، فيعيش معيشة الأتقياء في وسط ذلك النعيم العظيم ، فيحتمي هو وأولاده وأهل بيته شر الأمراض والأسقام ، ليعيش عيش السعداء ويموت موت الشهداء .

لا شك أن كل إنسان تقع لديه هذه الأماني موقع الاستحسان التام، ويود لو أطلت في شرح أمثال هذه العبارات ؛ لموافقتها لميله تمام الموافقة . ولكن قل لي بربك كم من الناس في هذا العالم بلغوا إلىٰ هذه الدرجة من السعادة ؟! وكم منهم يصح أن نقول عنه أنه كاد يحصلها؟!

انقسم الفلاسفة بعد شدة التدبر إلى قسمين عظيمين :

قسم يدعي أن ليس في هذا العالم راحة على وجه الإطلاق ، وأن الحياة كلها أكدار ، وأوصاب ، وآلام ، وأتعاب ؛ فزهدوا فيها زهد اليائسين .

وقسم رأى غير ذلك فقالوا : إن في الحياة حسنات وسيئات ، وأن السعيد من عرف كيف يستفيد من حسناتها على قدر الإمكان ، وكيف يتوارى عن سيئاتها جهد المستطاع ، فهو طول حياته بين هذين التيارين المتعاكسين ، يتوارى عن هذا ويأخذ جرعة من ذاك حتى ينتهي وجوده من هذا العالم ، ويصعد إلى عوالم أخرى تنتظره فيها نتائج جهاده الحيوي الطويل من هناء مقيم ، أو شقاء مستديم .

ونحن بالطبع لا نميل إلى الشق الأول لما في تعاليمهم من المنافاة للبدائه المحسوسة .

وأما الشق الثاني فهو الجدير بالنظر والرؤية ، الخليق بأن يتخذ أسلوبًا في هذه الحياة الأرضية ، ولكن ما أشد تكاليفه على هذا الإنسان الضعيف الذي قد تلتبس عليه أوجه السعادة والشقاوة فيتجنب الأولى ويسعى للثانية ؛ فيقع فيما كان يظن أنه يهرب منه ويتهالك في البعد عنه !

لا خير في هذا الوجود إلا وهو ممزوج بشر ، فمن استطاع أن ينقي ذلك الخير من كل ما فيه من الشر ، عاش حقيقة عيشة السعداء ، ونال

مقام أصحاب الصفاء ، ولكن كيف يتأتى ذلك وهو ليس مستقلاً بنفسه ولا قائمًا بذاته في جميع شئون حياته ؟ يلوح له الخير في عمل فتبدو له من مشاركيه في الوجود موانع وعقبات لو خطى واحداً منها قام أمامه غيره حتى ينتهي وجوده قبل أن تلوح له بارقة الأمل من مطلوبه .

ألا ترى معي أن كثيراً من الناس يرون الخير كل الخير في شيء فيلجئون (رغم أنفهم) إلى تجنبه ليس لكونهم غير قادرين عليه ، ولكن لما يقوم أمامهم من الموانع الوسطية والعقبات الاجتماعية !!

هذه الشئون كلها قد تملأ قلب الأنسان امتعاضًا وكدراً ، وتذهب به مذاهب من الفكر شديدة الأثر على تركيبه ، ولكنه لو رجع إلى نفسه رجوع الثابت الجأش ، وألقى بطرفه إلى قبلة من بيده مقاليد السموات والأرض ، واستنزل من جنابه روح الطمأنينة على نفسه ، آب وكله اعتقاد بأنه تعالى قد أتقن كل ما صنع ، وأحسن فيما أبدع ، وقضى أن يكون الخير والشر من لوازم هذا العالم الأرضي (لا محالة) لحكمة بالغة ، ومقصد عظيم : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الانبياء: ٣٥] فمن استطاع أن يعتدل بين هذه الزوابع المتعاكسة نال خير الأبد ، ومن مال ذات اليمين أو ذات الشمال ، وتمنى ما لا ينال كان حسابه عند ربه .

ليس يحب الإنسان فقط أن تكون له زوجة صالحة أو أن تمشي بجانبه بغير حجاب ، بل يتمنى أن تكون حالته أصلح من ذلك : يتمنى

أن لا يمسه الشر ولا يقرب منه الموت ، يتمنىٰ أن ينعدم الفقر ، وتزول الأمراض ، يتمنىٰ أن لا يرىٰ ما يكره في بني وطنه ، وبني نوعه ؛ ولكن هيهات لابد من شر ، ولابد من موت ، ولابد من فقر ، ولابد من مكروه! ولابد للإنسان من أن يضغط علىٰ حريته ، ويحرم من لذته لكي ينجو من كثير من الويلات التي لا تندفع بغير ذلك .

إني أرىٰ كثيراً من الذين يتكلمون علىٰ المرأة ، يتخيلون امرأة كاملة في وسط رجال كاملين في وجود لا نقص فيه ؛ فيهبونها من الأوصاف والنعوت الجميلة ما يجعلها النموذج الخيالي المبرأ من شوب النقائص علىٰ وجه الإطلاق : كأن تكون كاملة في جمالها وطبائعها ، قرة عين زوجها وأهلها ، مربية عارفة بواجبات وظيفتها ، تؤدي أعمالها البيتية علىٰ أتم نسق وأقوم منوال، ثم تهب جزءاً ثميناً من وقتها في تحسين حال الأمة من جهة الخارج ، بمشاركتها للعلماء في أبحاثهم وللفلاسفة في أخلاقياتهم ، وللرحالات في مكتشفاتهم .

وبالاختصار تكون كل شيءٍ سواء كان في الداخل أو الخارج ، نعم حبذا لو كان الأمر كذلك ، ولكن لقوانين الحياة سير غير ما نظنه ، ولشئون الوجود أدوار قد لا تخطر لأعقلنا علىٰ بال؛ ولذلك نرىٰ كثيراً من كتابات الكاتب تسقط إلىٰ الحضيض ولا يكون لها أثر يذكر في الخارج .

أمـا نحن فنرىٰ أن من الـواجب علينا عند الكلام علىٰ الأحـوال الاجتماعية أن نلم أولاً بماهية الوجود الذي نحن فيه ، وبمقدار النقص والكمال في سائر أحواله ، وبعلاقة كليهما بأحوال الإنسان وأطواره؛ ليكون حكمنا سليمًا من الخطأ ، ونصائحنا مجردة عن الخيالات التي لا تتحقق .

فإذا تكلمنا علىٰ المرأة (مثلاً) يلزمنا قبل كل شيء أن نشبع أفكارنا بأننا نتكلم علىٰ المرأة (الآدميـة) ، الموجودة بين شـعب كل أفـراده (آدميـون) ، لهم نزوات ، ونزغـات ، وأهواء ، ونقـائص ، وأننا في عالم أرضي غير مبرأ من الشرور والمصائب .

لا شك أننا قبل التكلم علىٰ المرأة لو شبعنا أفكارنا بما ذكرنا ، هدأت سورة تحمسنا ، وملكنا أفكارنا ، وتصوراتنا ، وكتبنا ما لا يجافي سنة الوجود ، ولا يعارض طبيعته ، وكان لكلامنا من التأثير وحسن الأثر ما يجعلنا نحمد مغبة التعب في التحرير وإبداء النصيحة .

يقولون : للحجاب ثلاثة مضار مهمة لها علىٰ المرأة آثار رديئة جدًا .

أولاها : أنه يضعف صحتها ، ويعرضها للأمراض ، وضعف الأعصاب ، ومتىٰ ضعفت الأعصاب ، اختل التوازن في القوىٰ الأدبية ؛ وبنوا علىٰ ذلك أن المرأة المحجبة يجب أن تكون أسيرة

شهواتها ؛ لأن سلامة الأعصاب أهم أعوان الإنسان على ضبط نفسه ، وضعفها أكبر الأسباب التي تجعل الإنسان ألعوبة في يد شهواته .

ثانيها : أن الحجاب مانع للخاطب من رؤية وجه مخطوبته ، وهو السبب الكبير في كثرة الطلاق وعدم الوفاق .

ثالثها : أنه يمنع المرأة عن التهذب والتعلم ، ويصدها عن متابعة أميالها في تنمية قواها العقلية والأدبية في بيوت التعليم .

فلنرد هذه الثلاث شبه فنقول : النساء المحجبات لسن بمريضات ولا ضعيفات الأعصاب ، بل هن في المجموع أقوى من النساء المكشوفات بكثير ، وهذه القضية يستطيع كل شرقي أن يحكم عليها بمجرد النظر . وقد مضى على المسلمات نحو من ثلاثة عشر قرنًا ، وهن محجبات مصونات ، فلو كان الحجاب يحدث فيهن ضعفًا من أي نوع كان ، لوجب أن يتوارثه النساء والرجال جيلاً فجيلاً ، حتى يكون المسلم والمسلمة اليوم مثالي الضعف وخور القوة ؛ لأن القواعد (الباثولوجية) تقتضي ذلك ولكنا نرى العكس : نرى أبناء النساء المحجبات أقوى جسمًا من رجال النساء المكشوفات .

ومع ذلك فإن الإحصاء الصحي لا يدلنا على زيادة الوفيات في النساء ، ولو كان الحجاب مضرًا بالصحة لأصبحت الوفيات منهن أكثر من وفيات الرجال طبعًا وهذا خلاف المشاهد .

أما قولهم أن النساء المحجبات أسيرات لشهواتهن ، فذلك مما لا

ينطبق على علم (البسيكولوجيا) العملية ، فإنه لا يغيب عن أي إنسان أن الميل إلى الشهوات لا يحصل في الإنسان بشدة إلا بوجوده بين مثاراته ، ولا يغلب العقل إلا إذا وجد سهولة الوصول إلى مطلوبه .

فأي المرأتين إذن تكون أشد تعرضًا لمثارات الشهوة ؟!

المحجبة أم المكشوفة ؟ المتعالية عن الاختلاط بالرجال بغيرة دينية وراثية شديدة أم المختلطة بهم ؟ أليس الثانية طبعًا ؟!

اللهم إن علم البسيكولوجيا أكبر شهيد عندنا بهذه الحقيقة ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فإن لسهولة وصول الإنسان إلى مشتهياته تأثيراً كبيراً على نفسه ، من حيث إنه يضعف فيه الأنفة من غشيانها ، ويميت فيه عامل الاشمئزاز منها .

إليك مثالاً لذلك : هب أن شابين في درجة واحدة من السن والتهذيب ، تعلما في مدرسة واحدة وتحت سماء مشتركة .

أحدهما بعيد عن عائلته ، لا يرى بينه وبين التمتع بأمياله غير ما لديه من التهذيب ، وخشيته من غوائل الفضيحة .

وأما الآخر فمحاط بعائلته ، ومهيمن عليه في سائر تصرفاته ، دونه حجب بينه وبين شهواته إن أزال حجابًا بدى له غيره ، وإن تخطى عقبة قام دونه سواها ، فأي هذين الشابين يكون ميله إلى الشهوات أشد وكلفه بلذاته أكثر ؟

أليس الأول بالبداهة وبدون تردد ؟ هل ترده صحته الجسمية وانتظام مجموعه العصبي ؟ ألا تكون تلك الصحة عونًا له في تلك الحالة على غشيان الشهوة ، وإتيانها بكل وسيلة كما هو مشاهد محسوس؟

إن لم يكن الأمر كذلك لزم أن يكون كل صحيح الجسم صحيح الفؤاد وهو خلاف الواقع ، فإن كل أصحاب الخلاعة والفسق والفجور هم من الأقوياء والأشداء غالبًا . ربما يقال أن هؤلاء لا تهذيب لديهم ، فلو كانوا جمعوا إلى صحة الجسم صحة التهذيب العقلي لقام تهذيبهم حاجزًا منيعًا أمام كل شين أخلاقي .

نقول : إن المشاهد بالعين أن كثيرًا من أصحاب الخلاعة واللهو من المهذبين المتنورين ، ومن بينهم عدد عديد من الذين تلقوا أسس الآداب من أوروبا ومع ذلك فهم أشد غشيانًا للشهوات من سواهم .

أما تلك التربية التي ترد جماح الإنسان عن كل ما يخدش وجه الإنسانية ، فلا توجد إلا عند أفراد متمسكين بشرع الله وسنة رسول ﷺ .

ولا يخفاك أنها لا تحصل إلا بكثرة الدرس ، وإشباع القلب بحقائق الأشياء ، وأما السواد الأعظم من الأمم فلن يكون له نصيب من هذا التهذيب مطلقًا حتى ولا في المستقبل البعيد .

أقول هذا ، وأمامي الحوادث تشهد لي ، ولكل قارئ بصر وبصيرة ، يستطيع بهما أن يعزز الحق بشهادته .

إذا تقرر هذا ، فالمرأة المصونة أقل ميلاً للشهوات ، وأقل تفكراً فيها من سواها يقينًا ، ولا سبيل للجدل في هذه القضية .

أما من جهة ضعف الأعصاب ، وقلة توازن القوة العقلية بسببه ، فإني أراه لدى نساء الغرب المتحررات أكثر منه لدى نساء الشرق المحجبات ، فإن ذلك الضعف العصبي لا يأتي من التحجب والتصون ، فإن أسبابه أكثر من أن تعد .

منها الهموم ، والغموم ، والفقر ، والفاقة ، والحب ، والهيام ، وغير ذلك ، ومن يتصفح أي مجموعة طبية يجد أن ذلك الداء في نساء الغرب المتحررات أصبح أمرًا عاديًا . ومع ذلك فإن لضعف الأعصاب في الأمة علامات كثيرة جدًا أهمها كثرة الانتحار .

فقد أثبت (لومبروزو) وغيره من البحاثين في الجرائم أن الإنسان لا يرتكب جريمة القتل أو الانتحار وهو صحيح القوة العقلية أبدًا .

وحيث إن صحة القوة العقلية تابعة لصحة الأعصاب ، يكون كثرة الانتحار علامة عملية ، ترشدنا إلى أن العالمين نساءَهم أضعف أعصابًا .

أثبتت مجلة المجلات (مجلد ١١) من الإحصائيات الرسمية في إيطاليا أنه حصل فيها من سنة ١٨٨٩ إلى سنة ١٨٩٣ ، أي : مدة سنين (٥٦٩) انتحاراً من النساء .

وحصل في فرنسا في تلك المدة عينها (٥٨٦٩) انتحاراً من النساء .

إذن فنساء الشرق أقوىٰ أعصابًا من نساء الغرب ، وأقوىٰ منهن علىٰ التغلب علىٰ أنفسهن وقهرها .

وإذا كان ميل الإنسان للشهوات ، وعدم قدرته علىٰ كبح نفسه ، تابع مباشرة لضعف الأعصاب ، فيكون الشرقيون (عمومًا) أقوىٰ أعصابًا من الغربيين ، فإن هؤلاء الأخيرين مع ما لديهم من التهذيب المنتشر بين سائر طبقاتهم ، لم يستطيعوا أن يقلعوا عن عادة السكر مع ما فيها من القبح ، وما تجره عليهم من الويلات الشديدة كل يوم ، وكل ساعة علىٰ النفس والعقل والمال .

وقس عليها سائر الشهوات النفسية الأخرىٰ ، التي هي في الغرب (بلاد الحرية كما يقولون) أكثر تشبثًا بالنفوس منها في الشرق .

أما قولهم أنه مانع من رؤية المخطوبة ، وبناؤهم كثرة الطلاق وشكاوىٰ النساء علىٰ هذا السبب ، فنرده بقولنا : سمح الشارع للخاطب أن يرىٰ المخطوبة بحضرة ولي أمرها ، وهذا أمر معروف ومحسوس من سماحة الدين الإسلامي .

ثم إن الشكاية من كثرة الطلاق ، وظلم الرجال للنساء ليس خاصًا بالمسلمين ، بل هو في البلاد المدنية (الأوربية) أكثر منه لدينا ، فنوجه أنظار القارئ إلىٰ الفصل الثاني عشر ؛ فإن فيه الكفاية من هذا النوع .

أما قولهم أنه يمنع المرأة من التهذيب والتعلم فليس بصحيح ؛ لأن البنت تستطيع أن تمكث في المدارس من السنة السابعة من عمرها إلى السنة الثانية عشر ، ولا يخفى أن هذه الخمس سنوات كافية لإبلاغ عقلها إلى درجة طيبة جداً من التهذيب ، وليس يعزب على همم الغيورين من الأمة أن يوجدُوا مدارس عالية ، تكون كل معلماتها من النساء ، فيتأتي للبنات أن يحضرنها بدون نقاب في الداخل ، حتى إذا خرجن منها وضعن على أوجههن الحجاب حتى يصلن إلى بيوتهن ، وهذا منتشر في كثير من بلاد المسلمين ، وإذا اعتلوا بعدم وجود معلمات لهذه الطبقة العالية ، فذلك يكون من باب التعلل الذي لا يقبل ، فإن الهمم تعمل كل شيء لو كان هناك ميل في النفس ، ومع ذلك فمن العبث أن نسعى لعمل كل شيء في وقت واحد ، كل عمل لا يبدو إلا صغيراً ، ثم ينمو شيئًا فشيئًا حتى يبلغ الكمال التام .

إذا تقرر هذا كله نقول : إن الحجاب ليس بمفسد للصحة ، ولا بمضعف للأعصاب ، ولا بمثير للأهواء ، بل هو حاجز مادي دون كثير من المفاسد والمشائن ، لو أضيف إليه حاجز أدبي يقويه ، ويساعده على فعله ؛ تلاشت من بين المسلمين كثير من الويلات ، التي أصبحت جراحًا دامية في جسم تلك المدنية المادية .

***

الفصل الحادى عشر

هـــل يــزول الحجــاب ؟

ليس زوال الحجاب ووقوعنا في كل الأخطار التي ذكرناها بالأمر المستحيل ، فقد أزالت هذه المدنية المادية بلألأها الكاذب ، وزخرفها الساحر كثيراً من الحجب الضرورية قبله ، وقد رأى الشرقيون قاطبة أن عدداً عديداً من تلك الحجب التي تلاشت باسم شيء سموه الحرية الشخصية كانت لازمة من لوازم كمال البشر .

ولا غرابة في ذلك ، فإن هذه المدنية نتيجة ضغط سابق ، وبنت حجب حديدية آلمت أهلها قروناً عديدة ، فلما تهيأ لها الخلاص كافحت كل شيء فيه معنى الضغط والحجر ، ووجهت كل همتها إلى فك كل قيد بدون أن تكلف نفسها البحث إلى إرجاع الإفراط أو التفريط إلى منهاج الاعتدال .

هذه الحالة تشاهد في كل أطوار هذه المدنية ببسيط من الانتقاد والتأمل ، وإليك بعض الشواهد :

غلا رؤساء الدين في بعض أدوار حياتهم ، فأساؤا التصرف في سلطتهم الروحانية ، واستأثروا النفوس لسطوتهم الدينية ، فلما جاءت المدنية ، لم ترجعهم إلى حدهم المعتدل ، بل سعت في ملاشاتهم وملاشاة

الدين بالمرة ، ولم يزل دوي تلك الصدمة يطير لنا على جناح البرق كل يوم .

تطرف القائمون على معقولاتهم في أزمنة الاستبداد ، حتى حرموا عليهم التمتع بمزايا الفكر وثمرات العقل ، فلما جاءت المدنية لم تشأ أن تقف بالناس موقف القسط ، بل أباحت الحرية الفكرية لكل ناعق وناعر ، حتى تهجم سخاف العقول والأفكار إلى التطاول إلى ما يعلو عن متناول عقولهم ، فأنكروا القدرة الإلهية والعقائد الفكرية ، ولم تزل أذيالهم تنعق بالويل إلى اليوم .

اعتدى أصحاب السلطان في بعض أدوار التاريخ ، فخرجوا عن دوائر العقل إلى متاثه الاستبداد والاستعباد ، فلما جاءت المدنية لم تقنع بكبح جماحهم وإرجاعهم عند حدهم ، بل مالت إلى محو السلطة بالكلية ، وتقليد الهامجات من النعم في حريتها من نير الحكومة ، وأخبار هذه الفرق لا تحتاج إلى بيان .

تشدد الحافظون لربط الأخلاق في الحجر على كل ما ينافي الأدب ، حتى كرّهوا الناس الأعمال الدنيوية ، وزهدوهم في الحياة الأرضية .

فلما جاءت المدنية لم تكتف بالرجوع بالناس إلى قسطاس العدل المستقيم ، بل قذفت بهم إلى مجالات الإباحة المطلقة باسم الحرية الشخصية ، حتى صار يرتكب باسم المدنية جرائم يستنكفها الحيوان الأعجم ، ويمجها البهيم لو استطاع أن يتصورها .

تنطس الناس في بعض أحيانهم بالضغط على المرأة ، حتى وضعوا في فمها الأقفال الحديدية ، وحرموا عليها أكل اللحم والضحك ، وادعوا أن ليس لها روحًا .

فلما جاءت المدنية ، لم ترض بالتوسط في إعطاء المرأة حقوقها ، بل ألقت بها إلى باحات الإطلاق ، حتى صارت اليوم تؤلف الكتب البذيئة تطلب فيها محو الزواج بالمرة ، وتركها تجري خلف أهوائها النفسية .

هذه هي أحوال تلك المدنية العجيبة ، تتجلى لكل متأمل فيها ، ونحن معشر الشرقيين الذين قُضي علينا باحتذاء مثالها في كل شأن بدون نقد ولا تبصر ، نرى أنفسنا مرغمين في كثير من الأوقات إلى متابعتها فيما نعلم حقيقة أنه مضر بنا كل الضرر ، بل قاصم لعرى جامعتنا قصمًا نهائيًا .

وما دام الحال جاريًا على هذا المنوال ، ولم يقم فينا رجال ذوو أفئدة عظيمة ، وأعين تقوى على مقاومة هذه المظاهر السحرية فإن النتيجة لا تكون محمودة .

فالحجاب المضروب على النساءِ المسلمات اليوم لا يستحيل إذًا زواله بالكيفية التي زال بها حجاب الآداب والكمال من وجوه أكثر الشبان ، بل والشيوخ أيضًا .

فبعد أن كان (كما يروي لنا الكبار) شرب الدخان والجلوس على القهاوي محرمًا على الشبان ، والأعيان ، بل والأوساط . . . صرنا الآن نرى ونسمع أن أجمل شكل من أشكال التمدن ، هو أن يطلق للشبان عنان الحرية لدرجة يحسون بها بنت الحان علي مرأى من المارة في المحلات العمومية ، ويمشي الواحد من الرعاع بجانب المومس في أشهر الطرق ، وبين يدي أولى الناس بالمحافظة على آداب العمومية ، بدون أن يجد ممانعًا يقمع شهواته البهيمية .

كل هذه القاذورات لم تنشأ إلا بزوال حجب كانت مسدولة عليها ، وفضلاً عن كونها لم تنفع البلاد بشيءٍ ، نراها شديدة الامتصاص لحيويتها ، قاسية الهدم لبنائها ، حتى آل الأمر إلى ما يعلم الناس أجمعون .

فلا يبعد إذن أن يلفح الناس لافح من سموم التساهل ، فيتركون الحجاب يتلاشى شيئًا فشيئًا ، كما يشاهد الآن من حال بعض النسوة ، فيكون هذا الأمر نهاية البلاء على هيئتنا الاجتماعية (لا قدر الله) ، لأنه يقتضي لا محالة وجود كل العلل العنصرية التي درسناها في هذا المؤلف .

وهذه العلل باجتماعها إلى ما لدينا من الأدواء الأخرى تكوّن في جسم الأمة داء دويًا ، لا أحب أن أشخص أخطاره هنا تشاؤمًا منه وغلواً في الهرب عنه .

ولكن طُبع المسلم على عدم اليأس ، خلق كريم هبّ على روحه من روح القيم الإسلامية .

أراني مع كل ما قدمته ، أعتمد كثيراً على ما أشربه الفؤاد المسلم من الحيوية المتأصلة فيها ، والأَنَفَة الشديدة الشكيمة التي تعد مميزاً من مميزاته ، فأؤمل أن تلك النزعات الكريمة التي أنامها في نفوسنا هذا السيل الجارف من البدع الجديد المتلاشي ، ستستيقظ يوماً من الأيام تائقة إلى ذلك الكمال الملكوتي الذي غمر آباءنا الأولين بوارف ظله الإلهي .

فتخلع هذا الثوب العاري المزوق وتوكز بقدميها هذه البدع الشهوية وكزة الغائر على كمال فطرته الإنسانية ، فتتبع العدل والوسط في شأن النساء والحجاب ؛ لنكون آخر أمة حافظت على الكمال ودافعت عنه دفاع الأبطال ، كما كنا أول أمة رسمته للعالمين ، وجعلت أعلامه بينة للسالكين .

* * *

الفصل الثاني عشر

هل مرأة المدنية المادية هي المرأة الكاملة ؟

إن أقل نظرة فيما قدمناه تكفي للدلالة على أن أصحاب تلك المدنية المادية يعترفون علنًا بأن المرأة الكاملة لم توجد لديهم للآن ، وإن الأحوال الاجتماعية التي هم متورطون فيها (فضلاً عن كونها لم توصل المرأة إلى كمالها المنتظر) ، قد ذهبت بها عن وظيفتها مذهبًا ينافي ما تستدعيه فطرة الخليقة ، ومطالب الحياة الطيبة ، ونحن لو كنا ممن يفتتنون بالظواهر المموهة ، لكنا أول القائلين بلزوم احتذاء المرأة المسلمة حذو تلك المرأة ، ولكن قبل أن نخط حرفًا واحدًا في كتابة موضوعنا هذا ، مزقنا كل ستار يحول بيننا وبين حقيقة الواقع ، ونظرنا للمسألة بعين الدين والعلم واستقراء التاريخ ، فرأينا أن للمرأة في الحياة الإنسانية شأنًا غير شأنها الذي هي فيه الآن .

ثم نظرنا فيما كتبه مؤسسو تلك المدنية بأيديهم . فوجدناهم يعترفون معنا علنًا بهذه الحقيقة الجليلة ، وأنهم يسعون بجميع قواهم في درء كل تلك العلل تدريجًا ، وعلى حسب ما يقتضيه ذلك الشكل من التمدن المؤقت .

وأظن أن ما قدمناه من أقوالهم العديدة يكفي لأن يوافقنا كل قارئ

بأن حقيقة المسألة هي غير ما يراه بعينيه من الظواهر ، أو يسمعه بأذنيه من المدائح .

ولو ذهب بنا الانتصار لرأينا إلى حد نكذب معه أصحاب الدار أنفسهم وهم أدرى بأحوالها من سواهم ، نكون ولا شك قد ارتكبنا أعظم شطط يستدعي نتائج شديدة الألم .

على أن المسألة في ذاتها بسيطة ، ولا تحتاج إلى جهاد نفسي للوصول إلى لبابها ، فإن التدبر البسيط في أحوال الكائنات ومراتبها يرينا عيانًا أن الله (جل شأنه) قد وهب كل كائن من الأعضاء والقابلية ما يحتاج إليه في أمر معاشه ، ووظيفته الخاصة التي يرتبط بها كماله .

وإنه قد يستطيع ذلك الكائن أن يخرج عن دائرته الخاصة حينًا من الأحيان ، فتستحسنه العين برهة من الزمان لا لكونه مستأملاً لذلك ، ولكن لمحبة النفس لرؤية الجديد من الأشياء ، ولكنها لما تعتاد على رؤيته قليلاً ، وتقف على عصيانه لأحكام تركيبه ، تمجه وترى سائر عيوبه مجسمة .

مثال ذلك : أنا إذا سمعنا أنه قد نبغت فينا امرأة سياسية ، نجد في أنفسنا من البشر والسرور ما يحملنا إلى تحبيذ تلك السياسية الجديدة ، واعتبارها مثالاً كاملاً في عالم النساء، ونظل نختال عجبًا كلما رأينا خطبة من خطبها في الجرائد، ولكن لو نبغ بعدها سياسية وسياسيات ،

وطبيعيــة وطبيعيات ، وفلكية وفلكيات ، ومهندسة ومهندسات ، وأشعرتنا الأحوال بلسان أحداثها أن هناك أمراً ستحدثه علينا من جراء هذا البدع الجديد ، يتغير في الحال فكرنا ، ونصبح ناقمين على تلك المسترجلات غير راضين عنهن بوجه من الوجوه!

ولكن ماذا يغني تأسفنا في ذلك الوقت ؟ لن يفيدنا شيئًا ، لأن مقتضيات الأحوال تكون حينئذ قد أدخلتنا إلى شكل جديد من أشكال الاجتماع ، ونجد أنفسنا في ملتقى تيارين خطرين :

إن حجرنا على النساء ما هن فيه نكون قد زدنا الشر شراً ، لأن حالتنا العمرانية كما قلنا تكون غير ما نتوهمه الآن .

وإن تركناهن في تيارهن استشرى الكلم ، واستعصى الداء ، وعرّضنا أنفسنا إلى عين الأمراض التي يشكو منها علماء تلك الأمم ، كما نقلناه عنهم في هذا المؤلف .

هذا يصح أن يؤخذ مثالاً لشأننا وشأن الأوربيين ، وذلك أننا بمجرد سماعنا أن هنالك مهندسات ودكتورات يأخذنا العجب ويداخلنا البشر ، في نسياننا ما يجب أن نتذكره ، فنعمل على إحداث مثله حالاً غير حاسبين للمستقبل حسابًا ، طاعنين على كل من يقاوم تلك الحركة ، ناسبين إليه التعصب والرضوخ لسلطة الوهم والوراثة .

إن قلنا لهم : يا قومنا إن أولئك الغربيين الذين تستشهدون

بأحوالهم قد شبعوا من تلك الدكتورات والمهندسات ، وسئموا هذه الألقاب بالمرة ، وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون من شر التمرد على أحكام الكون ، وأنهم قاموا يكتبون وينذرون ويصيحون (وها هي كتاباتهم وإنذاراتهم) بلزوم تغيير تلك الحالة تغييراً ذريعًا .

إن قلنا لهم ذلك ، قالوا : ذلك وهم باطل ، وضرب من ضروب المغالطة في المناظرة ، ويذهب بهم الإعجاب بما سمعوه عن نجاح النساء في ضروب المعيشة إلى تكذيب كل قائل كائنًا من كان .

ولكن ما العمل؟ هذه سنة طبيعية ، وإن شئت فقل فتنة عمرانية تؤثر من الشعوب القوية على الشعوب الضعيفة تأثير السحر وأكثر ، حتى إن كثيراً من صفات الشرقيين أصبحت تقليدية محضة ، لو سألتهم عنها لما وجدوا جوابًا .

أشيع مثالاً وأبسطه يمكنك أن تراه في كل لحظة : سلام بعض الناس لبعضهم بلغة أجنبية لا يدرون منها حرفًا واحدًا ، ولا يحسنون النطق به لو تكلفوه ، هذا شأن العامة في كل أمة متأخرة ، ولكن الخاصة يجب أن يترفعوا عن هذا الحضيض ، وأن يكونوا، أعلام هدى يؤوب إليهم التائه ، وأراكين تقى يعصتم إليهم الهارب من وجه الفتن .

تذرع حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) بسوء حالة النساء في الشرق ، وبكثرة الطلاق إلى الحملة على عادة الحجاب ، وتشهيرها بالأسوأ ،

ونصح بلزوم رفعه بحجة أنه علة ، جل هذه العلل ومثيرها ، ولكنا نقول خلاف ذلك .

نقول : إن الحجاب وحده هو الذي ضمن هاته النسوة من الوقوع في شر مما هن فيه ، ولولاه لكان شأنهن أحط بكثير مما هو عليه .

ونقول : حيث إن الحجاب حمى المرأة وهي جاهلة حقيرة من شر كثير من أمراض اجتماعية مهلكة ، سيكون هو نفسه أكبر ضامن لها للتربع في دست وظيفتها الطبيعية ، وأحجى هادٍ لنوالها لكمالها متى تعلمت ولو تعلمًا متوسطًا .

لماذا كل هذه الحيرة ؟ أليس التاريخ وحوادثه شهود عدول ؟ لو كان كشف الوجه هو الكفيل الوحيد لعدم وقوع النساء في العلل التي تنسب إلى الحجاب لعدمت تلك العلل من الغرب ، أو لكانت فيه قليلة لا تذكر ، مع أن الأمر بخلاف ذلك فإن المطَّلع على أحوال العالم يرى أن تلك العلل التي يشكو منها محررو النساء هي بعينها موجودة في تلك المدنية المادية .

أما من جهة الفقر المدقع ، وسوء الحال الذي يقع فيه النساء ، فهو في بلاد تلك المدنية أشد منه في بلادنا بشهادة حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) نفسه ، فإنه قال : **«إن التعداد الأخير يثبت أن فى القطر المصرى يوجد ٦٣٧٣١ امرأة محترفة ، وأما فى فرنسا فيوجد زيادة عن خمسة**

ملايين امرأة مضطرة للعمل ، ولو عملنا النسبة بينهما لرأينا أن فى كل ١٠٠ امرأة فرنساوية يوجد ١٤ امرأة محترفة ، وأما فى كل ١٠٠ امرأة مصرية فلا يوجد إلا نصف امرأة » .

وهذا دليل محسوس على أن أنياب الفاقة في أحسن بلاد المدنية أشد قسوة على المرأة منها في بلادنا المصرية ، وأما قوله عقب هذا أن هؤلاء النساء مضطرات إلى العمل بدون أن يكون في أعمالهن ضرر يلحق بعائلاتهن ، فمما يعارض البداهة والحس وشهادات العمرانيين أنفسهم ، ونحن في مثل الخلاف في هذه المسألة يجب علينا أن نسأل أصحاب الدار أنفسهم ، من ذوي الدراية بعلم الاقتصاد .

وقد مرّ بك قول الفيلسوف الاقتصادي (جول سيمون) الذي له أكبر المآثر العلمية في القرن التاسع عشر ، فإنه صاح بملء فيه في وسط أوروبا ، بأن المعامل قد سلخت المرأة من عائلتها سلخًا ، وقوضت دعائم الحياة المنزلية تقويضًا ، وليس (جول سيمون) وحده هو الذي أدرك هذه الحقيقة ، فإن سائر العمرانيين يقولون قوله بدون استثناء ، ونحن لزيادة الإقناع نأتي هنا بترجمة نبذة للعلامة الإنجليزي (ساموئيل سمايلس) كتبها في كتابه المسمى (الأخلاق) قال حضرته[1] : **« إن**

(١) (ساموئيل سمايلس) هذا يعد من أراكين النهضة المدنية الإنجليزية ، وواحدًا من كبار محبي رقي النوع الإنساني ، وقد كتب كتبًا كثيرة في مواضيع عمرانية مهمة ترجم أغلبها إلى اللغة الفرنسية .

النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في الفابريكا مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد ، فإن نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية ، لأنه هاجم هيكل المنزل ، وقوض أركان العائلة، ومزق الروابط الاجتماعية .

فإنه بسلبه للزوجة من زوجها ، والأولاد من أقاربهم ، صار بنوع خاص لا نتيجة له ،إلا تسفيه أخلاق المرأة ، لأن وظيفة المرأة الحقيقية هي القيام بالواجبات المنزلية ، مثل : ترتيب مسكنها، وتربية عائلتها ، والاقتصاد في وسائل معيشتها ، مع القيام بالاحتياجات العائلية ، ولكن المعامل تسلخها من كل هذه الواجبات ، بحيث أصبحت المنازل غير منازل ، وأضحت الأولاد تشب على عدم التربية ، وتلقى في زوايا الإهمال ، وطفئت المحبة الزوجية ، وخرجت المرأة عن كونها الزوجة الظريفة ، والقرينة المحبة للرجل ، وصارت زميلته في العمل والمشاق ، وباتت معرضة للتأثيرات التي تمحو غالبًا التواضع الفكري والأخلاقي الذي عليه مدار حفظ الفضيلة » .

من هنا يتضح أن الفقر المدقع وسوء الحال بين نساء الغرب ، أشد منه عند نساء الشرق بما لا يقدر ويتضح .

أيضًا إن أولئك النسوة بعملهن خارج بيتهن ، قد صرن إلى حالة يرثى لها ويستعاذ منها ، وليس لنا أن نكذب أصحاب الدار في هذا الشأن ، ولو كان رفع الحجاب سبب سعادة المرأة أو بالأقل مخففًا لآلامها ، لما كان أمر تلك النسوة كما وصفناه هنا مطلقًا .

أما من جهة كثرة الطلاق فإنه أصبح في أكثر البلاد مدنية ورواء شديد الخطر لدرجة قلق لها عمرانيوهم أشد القلق ، ولم يستطيعوا إيقافها عند حد .

وإليك إحصاءً دقيقًا بقلم الكاتب الأمريكي الشهير (لوسن) كتبها في مجلة المجلات الفرنسية (مجلد ٢٥) بناءً على طلبها ، جاء منه :

« ثبت أن المحاكم في مملكة (مساشوزيت) سجلت في سنة ١٨٩٤ من أوراق الطلاق (١٦٢٢) ورقة بعد أن كان في سنة قبلها (٧٧٠) بمعني أنه آخذ في الزيادة بسرعة ، وكان يوجد في هذه المملكة في سنة ١٨٨٧ بين كل (١٠٥) أشخاص زواج واحد فصار في سنة ١٨٩٤ بين كل (١٢٢) شخصاً زواج واحد يعني قلّ الزواج أيضاً .

أما في مملكة (أهيو) من الممالك المتحدة أيضًا، فإنا نجد الأرقام المكدرة بعينها فقد سجلت المحاكم في سنة ١٨٦٥ أي قبل ٣٥ سنة (٢٢١٩٨) زواجًا حصل فيها (٨٣٧) طلقة، يعني أنه يخص كل ($\frac{١}{٢}$ ٢٦) شخصاً تقريباً طلقة واحدة ، وأما في سنة ١٨٩٤ فسجلت المحاكم (٣٣٨٥٨) زواجًا وبلغ الطلاق (٢٧٥٣) أي أن في كل (١٢) زواجاً ونصف طلقة .

وشوهد أن عدد الطلاق فيها في مدة عشر سنين بلغ زيادة عن معدله بمقدار (١١٠٠٠) ونقص الزواج عن معدله بمقدار (٨٤٨٨٩)» .

* قال الكاتب عقب هذا الإحصاء ما نصه : « **إن مملكة (أهيو) كانت لا تنقص (٩٤٢٥٦) عائلة لم تكن الحياة الأمريكية قد اتبعت تيار المرأة الجديدة** » .

وفي (كاليفورنيا) إحدىٰ الممالك المتحدة الأمريكية حصل في ألفي زواج في سنة ١٨٩٧ (٦٤١) طلقة أي في كل ثلاث عقود طلقة واحدة .

وإليك إحصاء رسميًا للطلاق في كثير من ولايات الممالك المتحدة بناء على ما نقله (لوسن) في مجلة المجلات المجلد المومأ إليه .

« **في مملكة (الكونيكوت) يحصل طلقة واحدة في كل ١٠ عقود .**

في مملكة (المساشوزيت) يحصل طلقة واحدة في كل ٢١ عقداً .

في مملكة (روسلان) يحصل طلقة واحدة في كل ١٣ عقداً .

في مملكة (شيكاغو) يحصل طلقة واحدة في كل ٨ عقود .

وثبت بالإحصاء أن محكمة شيكاغو تسجل كل سنة (٣٥٠) طلاقاً ، مع أن الأهالي لا يزيدون عن (٢٣٠٠٠٠) » .

قال (لوسن) عقب ذلك كله :

« **فالطلاق ينتشر إذن للدرجة القصوى، والمدهش أن (٨٠) في المائة من طلبات الطلاق آتية من قبل النساء ، مما يثبت أن ليس**

للرجل إلا دور ضعيف فى حل عروة الزواج ، وذلك لأن الطلاق يخجله جداً ولذلك تراه إذا تعب من امرأته يبحث عن سواها ، ولا يسعي فى انفصاله من الأولي إلا إذا طالبته الثانية بالزواج » .

وقد وصف هذا الكاتب سهولة الطلاق هناك فقال : « **وكثير من الأزواج يعترفون أن نساءهم طلقنهم إلا بعد أن يتزوجن ثانياً »** .

أما سبب الطلاق فهو في الغالب هجر الرجال للنساء وتركهن بدون نفقة .

* قال المستر (لوسن) المتقدم ذكره في المجلة نفسها : « **عند افتتاح المحكمة العليا في السنة الماضية (أي سنة ١٨٩٧) في (بوستون) ملئت المحكمة ثلاثة أيام متوالية بالناس رجالاً ونساء وكلهم يطلب الطلاق فأمضى في الأسبوع الأول (٧٥) طلاقا ، وكان السبب على العموم في طلبه هو هجر الأزواج نساءهم »** انتهى .

هذا الإحصاء وهذه الشكاوى المرة ، تثبت أن العلة التي يشكو منها حضرة مؤلف (المرأة الجديدة) موجودة في أعظم البلاد مدنية ورقيًا ، ولو كان سببها الحجاب لما وجدت هناك بهذه الدرجة المخيفة المهددة .

نقول : المخيفة المهددة لأنه ليس من شأننا أن ننكر ذلك بعدما شهد بها أصحاب الدار أنفسهم .

فقد جاء في مجلة المجلات تحت الإحصاء المتقدم هذه الجملة :

« فالخرقة الاجتماعية تحترق إذن ، ولكن ليس من طرفيها فقط ، بل قد سعوا في إشعالها من وسطها أيضًا ، ولا شك عندنا أن المرأة الجديدة هي التي تسعى في هدم العائلة » انتهى .

النظر البسيط فيما قدمناه يقنعنا لا محالة بأننا لا ينقصنا إلا شيء من التهذيب فقط لإزالة كل ما يشتكى منه مع دوام الحجاب ، لأنه الضامن الوحيد لاستقلال المرأة ، والكافل الفرد لعدم إخراج الرجل لها عن حدودها الطبيعية التي بها سعادتها ، وبدونها شقاؤها وهلكتها ، كما أثبتنا ذلك عمرانيًا .

فبالتربية حتى البسيطة يزول جهل الأمهات ، ويصرن أهلاً لإحسان شأن عائلاتهن ، وجديرات بإعجاب بعولتهن .

بهذه التربية البسيطة ، تتلاشى كل الارتباكات العلية ، أو تقل جدًا وتصبح العائلة مهبط السعادة والهناء ، ومتنسم الرغد وطيب الحياة ، ودليلنا المحسوس على ذلك ندرة تلك الارتباكات في الطبقات الوسطى المتعلمة من هذه الأمة ، بينما نرى تلك الارتباكات الزوجية في بلاد المدنية المادية آخذة في الانتشار يومًا بعد يوم بشهادة الإحصاء السابق ، وغيره مما أضربنا عنه هنا لعدم التطويل ، ولا مشاحة في أن أولئك المطلقين والمطلقات في بلاد الغرب هم أرقى علمًا في الجملة من طبقاتنا التي يندر فيها الطلاق جدًا .

فإذا كان سبب كثرة الطلاق عندنا جهل النساء ، وسوء حالتهن ، فلماذا يحصل بين أولئك النسوة الغربيات المتعلمات بتلك الدرجة المهددة بالتلاشي؟

هذه النظرة البسيطة تكفي للدلالة بأن لكثرة الطلاق، والارتباكات المنزلية أسبابًا أخرىٰ غير الجهل ، وما ينتجه الحجاب من المضار .

ثم لو كان سبب ترك الرجال لأزواجهم بدون نفقة سببه عندنا امتهان الرجل للمرأة واعتباره إياها من ضمن سقط المتاع ، كان يجب أن يزول هذا الداء بزوال سببه عند أصحاب المدنية المادية ، فإنهم وخصوصًا عامتهم يدعون أنهم يحترمون النساء غاية الاحترام ، ويعطونها أكبر قسط من الإجلال والإعظام .

ولكن الإحصائيات تدلنا كما قدمنا أن السبب علىٰ العموم في طلبات الطلاق هو هجر الأزواج لنسائهم بدون نفقة ، فلأي علة ينسب هذا الأثر السيئ ؟ إلا امتهانهم للنساء وهم كما يدعون يحترمونهن ، ويضحون بأنفسهم من أجلهن .

أم لقلة تهذيبهم وهم كما نعلم ليس فيهم واحد في الألف يجهل الكتابة والقراءة ؟ إذن وجب أن يكون لهذا المعلول علة غير ذلك .

يقولون : إن الحجاب والتحرر مانع قوي من اختيار الرجل للمرأة

التي تلائمه وحائل دون معرفته بأخلاقها وآدابها ، ويبنون على ذلك كثرة الطلاق عندنا .

نقول : (أولاً) إن الطلاق عند طبقاتنا العليا والوسطى المتنورة يكاد يكون معدومًا ، ولو كان سببه عدم اختبار الرجل لطباع المرأة قبل زواجه بها لوجود الحجاب ، لكان يجب أن يكون الطلاق في هاتين الطبقتين مساويًا لمثله في الطبقة السفلى ، والمشاهد عكس ذلك .

(ثانيًا) لو كان اختبار الرجل لطباع المرأة قبل الزواج هو الكافل لعدم الطلاق ، فهؤلاء أصحاب المدنية الغربية لا حجاب لديهم وحاصلون على تلك النعمة (النقمة) فلماذا يكثر الطلاق فيهم ويزداد لدرجة أثبتت لعقلائهم أن الخطر محدق بهم من جراء ذلك .

(ثالثًا) إذا كان الزواج الذي يبعث إليه الحب هو الضامن الفرد لبقاء عقد الزوجية ، ولا يتأتى حصول هذا الحب إلا بنبذ الحجاب ، فهؤلاء أصحاب المدنية الغربية متمتعون بهذه النعمة (النقمة) ويندر فيهم ، من يتزوج بدون أن يحب ، فلماذا يكثر فيهم الطلاق لهذه الدرجة ؟

كل هذه النقط البارزة يجب أن يضعها الباحث المدقق نصب عينيه ليعلم ماهية العلة وكنه سببها ، ولا يجوز له أن يقنع بهذا فقط ، بل يلزمه أن يدرس سائر المقتضيات الاجتماعية التي تقتضي تلك الأحوال

وأضدادها مع مقارنتها ببعضها ، وتحليلها تحليلاً علميًا دقيقًا ، ليصل إلى العلة الرئيسية للمرض المفروض .

أما نحن فنقول : إن كل هذه الأعراض عندنا سببها عدم تهذب المرأة والرجل معًا ، أو لأسباب خاصة ، ونرى أن قليلاً منه يكفي لتحسين حالتنا الاجتماعية تحسينًا يحسدنا عليه كل الأمم ، ودليلي المحسوس على ذلك قلة وجود هذه الأعراض عند الطبقات المتهذبة ، ولو ازددنا تهذبًا لأتى علينا حين لا يمر بفكر عمرانينا مثل هذه الارتباكات المشوشة ، فنحن إذن لا نعتبر كل هذه الأحوال إلا من قبيل الأعراض السطحية السريعة الزوال ، التي لا تحوجنا إلى سحق جمعيتنا وبنائها من جديد .

ونعتبر الحجاب حافظًا رحمانيًا ، حمانا الله به ورحمة رحمنا المولى عز وجل بها من تأصل هذه الأعراض واستحالتها إلى أمراض عضوية في جسمنا الاجتماعي .

أما سبب تلك الأعراض في المدنية الغربية فأمراض عضوية ذات شأن خطير جدًا يعوز إصلاحها انقلابات شديدة هائلة ، كما يقر بذلك كل عالم بما هنالك .

* كتب العلامة (ايذوليه) أستاذ الفلسفة في مدرسة (كوندرسيه) الباريسية في مقدمة كتاب (الأبطال وديانة الأبطال) للعلامة الفيلسوف

(كارليل) الإنجليزي يقول : « **إن الأزمة الحاضرة شديدة الخطر جداً ، ومع ذلك فإن هذا الحال ليس بأول شفق عم أرجاء أوربا** » .

ثم استطرد في شرح ما انتاب أوروبا من الانقلابات الكثيرة التي كانت دائمًا محفوفة بالاضطرابات الاجتماعية الشديدة ، ثم استشهد على لزوم حدوث تلك الانقلابات ، وما يصحبها من الاضطرابات بقول (كارليل) الذي نصه :

« **يجب أن يزول كل تافه وكاذب ، ويحل محله الصدق أيا كان نوعه وبأي وسيلة كانت ، سواء كان بسيادة المخاوف ، أو بشدائد الثورة الفرنسية ، أو بأي شيء آخر ، فإنه يجب أن نعود إلى الحقيقة ، وهذه الحقيقة كما قلت لا تأتي إلا لابسة ثوباً من نار جهنم ، لأنه لا يمكن الحصول عليها إلا بهذه الصفة** » .

إذا تقرر هذا فمن العجيب أن يوجد منا من لا يعلق على هذه الإنذارات أهمية ما . ويريدون أن نقلد أصحاب هذه المدنية في كل شيء ، وخصوصًا في مسألة النساء مع أنها أعظم ما يشغل بال علمائهم ونصحائهم ، حتى إنهم ليصيحون في أعظم جرائدهم قائلين :

« **إن خرقتنا الاجتماعية ليست مشتعلة من طرفيها فقط بل من وسطها أيضاً** » كما نقلناه عن مجلة المجلات ، ويكتبون في أعظم دوائر معارفهم أمثال هذه الجملة : « **فكيف الخلاص من هذه الحالة التي تهددنا**

بسقوط سريع ، إن لم نقل بهبوط لا دواء له » كما نقلناه عن دائرة معارف القرن التاسع عشر .

فليعلم المسلمون أن وراء هذه الصيحات أمور كبرى » وطامات عظمى فليقتنعوا بتهذيب بناتهم ، ولا يخرجوهن عن دائرة الفطرة مهما غيّر العالمون في مراتب الكائنات ويدلوا ، وليقفوا وقفة المتفرج على ما سوف يفعله الله بالمفرطين والمفرّطات ، والمتحررين والمتحررات .

فإن الله جل شأنه بمنحنا هذه الشريعة السمحاء الملائمة لنظام الخليقة ، سيستشهدنا يوم القيامة على العالمين حيث قال عز شأنه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة ١٤٣] .

* * *

الفصل الثالث عشر

أي أساليب التعليم أصلح لحال النساء ؟ ؟

نحن بعد أن حللنا مسألة المرأة ذلك التحليل العلمي الذي رأيته في هذا الكتاب ، ونظرنا إليها من كل أوجهها بمنظار العلم الصحيح ، وعلمنا بعد ذلك كله ماهية تلك الحالة جيدًا ، وتحققنا أن ما لدينا من تلك الأعراض البسيطة لا يعوزه إلا التهذيب المؤسس على قواعد حكيمة ، وجب علينا أن نبحث على أحكم أسلوب نؤدي به للمرأة هذا الواجب التهذيبي ، عملاً بقول مؤسس العمران الإلهي ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** » .

ونحن لو رأينا ذلك الأسلوب الصحيح عند أية أمة من الأمم مهما كانت منافية لنا دينًا ودنيا ، فلا نتأخر عن تقليدها فيه بدون تعصب طاعة لترجمان الحكمة الإلهية ﷺ : « **خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء أخذت** » ولكن من جهة أخرى لا يليق بنا ، بناء على هذا التصريح أن نتهافت على أخذ شيء قبل سبر غوره بمسبار العقل والحكمة عملاً بقوله ﷺ : «**المؤمن كيس فطن حذر**» فإن وجدنا ضالتنا عند أية أمة من الأمم أخذناها على الرأس والعين ، ونكون قد قمنا بواجب ديني عظيم » فإن : «**الحكمة**

ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها ، وإن لم نجدها وجب علينا أن نعمل قرائحنا ومواهبنا في ابتكار ذلك الأسلوب المنطبق على الفضيلة والفطرة ، وأن نستنزل على أرواحنا روح الرحمة الإلهية ، لتهدينا إلى أحسن السبل وأقومها ، فإن الله أكرم من أن يتركنا نجاهد وراء الحقيقة عبثًا ، فقد وعدنا ووعده الحق بالهداية ، حيث قال :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] وإني لا أرى أن انتقاد أساليب التعليم لدى الأمم يستدعي منا كبير تعب ، فإن عقلاء القوم أنفسهم يقرون علنًا ، بأن طرائقهم في تهذيب النساء جرّت عليهم ويلات كثيرة ، وأنها محتاجة إلى تحوير وتبديل عظيمين للغاية ، فيكون تقليدهم فيها ، والحالة هذه ضربًا من ضروب عدم التبصر الذي لا يغتفر ، بل أمرًا لا يقبله العقل أبدًا ، فإن عصيان نصائح المجربين ليس معناه إلا الاستسلام إلى أشد المصائب ، والاستهداف لأسنة المحن والنوائب .

ونحن لأجل أن نثبت أن طرائق التعليم هناك مضرة للدرجة القصوى ، وغير منطبقة على أحكام الخلقة النسائية ، سننتقي أكثر أمم الأرض تمدنًا ، وأعلاهن كعبًا في العمران ، ثم نسأل أعلم علمائهم في هذا الشأن مما لا يختلف اثنان في غيرتهم على أممهم ، وفي غزارة مادتهم من بين أقرانهم .

* قال الفيلسوف العمراني الشهير (جول سيمون) الذي لايجهل أحد مكانته عند الأمة الفرنسية خصوصاً وسائر الأمم عموماً قال في مجلة المجلات (مجلد ١٨) : « **كان الناس في سنة ١٨٤٨ يشكون من عدم الاعتناء بتهذيب النساء وتربيتهن ، ولكنهم بالعكس يشكون اليوم من أن التهذيب قد بلغ حد الإفراط ، نعم لا نشك في أننا خرجنا من تفريط إلى إفراط هائل** » .

ثم استطرد بعد ذلك إلى فساد نتائج ذلك الأسلوب من التعليم الذي يجعل المرأة رجلاً ، وصاح بأعلى صوته قائلاً : « **يجب أن المرأة تبقى مرأة** » . ثم سرد بعد ذلك ما طرأ على العائلات من الفساد ، كما نقلنا عنه ذلك في فصولنا المتقدمة .

هذا فيما يختص بتهذيب بنات الأمة الفرنسية ، أما الأمة الإنجليزية فنستشهد على عدم صلاحية أسلوبها في تعليم البنات بما كتبه العلامة الشهير (ساموبل سمايلس) ذلك الرجل صاحب المؤلفات الجمة التي ترجم أكثرها إلى اللغة الفرنسية وغيرها ، قال في كتابه (الأخلاق) ما يأتي :

« **إن أعظم ما كانت تمدح به المرأة الشريفة ربة العائلة عند الرومانيين القدماء ، هو أنها كانت ملازمة بيتها تغزل فيه ، وقد قيل في عصرنا أن غاية ما يلزم أن تعلمه المرأة من الكيمياء ، هو أن تعرف حفظ القِدْرِ في حالة الغليان ، ومن علم الجغرافيا معرفة الغرف المختلفة في بيتها ،**

على أن (بايرون) الذي كانت أمياله نحو النساء غير سديدة ، اعترف بأنه يود أن لا يوجد في مكتبتها غير التوراة وكتاب الطباخة . إلا أن هذا الرأي بالنسبة لأخلاق المرأة وتهذيبها يعتبر حرجًا ضيقًا للغاية وغير معقول ، هذا من جهة . أما من جهة أخرى فإن الرأي المضاد له وهو الشائع الآن جدًّا يعتبر جنونيًّا ، ولا ينطبق على نظام الطبيعة ، فإنه يقضي بتهذيب المرأة لتكون بقدر الإمكان مساوية للرجل بلا فرق بينهما إلا في الجنس أي : مساوية له في جميع معارك الحياة الوحشية ، وحب الذات للتنافس في نوال مركز أو قوة أو نقود » انتهى .

بقي علينا الأمة الأمريكية ، فإليك بالنسبة لعدم صلاحية أسلوبها هي أيضًا شهادة الباحث المدقق (المستر لوسن) الأمريكي الذي كلفته مجلة المجلات الفرنسية بكتابة فصل يشرح فيه حالة النساء في الأمة الأمريكية فلبىٰ دعوتها ، وكتب لها مقالة طويلة أدرجتها في (مجلد ٢٥) فدونك ما جاء فيها بالنسبة لتهذيب النساء ، قال بعد أن أطال في شرح حالة المدارس :

« ولكن هذه المدارس يظهر أنها أنشئت لأجل الشابات اللاتي يردن الشغل بمعلوماتهن ، ولأجل أن يكن دكتورات وأستاذات، ولذلك تجد التهذيب فيها ضعيفًا : (يعني التهذيب الخاص بالمرأة) ولكن الدراسة قوية، فتراهم يعلمونهن بالتدقيق علوم الكيمياء والطبيعة والرياضة، ومع كل هذا تجد أن الشابة التي نالت قصب السبق في العلوم ، والتي تضلعت في

جميع مواد البروجرام جاهلة للدرجة القصوى بأبسط النظامات المنزلية».

هذه أقوال أصحاب الدار ، فبأي حجة نكذبهم ونصدق غيرهم؟! وعلى هذا فنحن لا نستطيع أن نظل على فكرنا الأول من نصيحة المسلمين باتباع أي أسلوب من هذه الأساليب الغربية في التهذيب ، إلا إذا ضربنا بكل هذه الأقوال عرض الحائط ، واتهمنا كل طاعن على تلك الأساليب ، ولو كان من صميم القول بالجهل الشائن أو سوء النية ، إذا راق في أعيننا ذلك فهلم نقلد من شئنا ونتشبه بمن أردنا .

وأما إن حمانا حب الحق من ذلك يلزمنا إذن أن نعتبر بحالهم ، وندرأ عن أنفسنا ما جره عليهم تسرعهم في شئونهم ، لكي لا نقول مثل ما يقول (جول سيمون) :

« كنا نشكو من التفريط في التعليم ، فصرنا نشكو من الإفراط فيه» .

***

خاتمة

نظرة إجمالية

إني وإن كنت سلكت في بحثي هذا جادة الأسلوب الحسي التجريبي الذي لا سبيل إلى تكذيب نتائجه إلا بتكذيب مقدماته المحسوسة المشاهدة بالعين ، إلا أني أخشى أن يكون كثرة تقسيماتي لمواضيعه قد أنست بعض قرائي كثيراً من النظريات التي هي كالأعمدة المتينة ضرورة احتجاب المرأة ، لهذا أردت أن أحصر تلك النظريات في هذه الوريقات القليلة لتكفي نظرة من التأمل بسيطة للإحاطة بشكلها الجملي دفعة واحدة تاركًا دقائقها التفصيلية إلى ذاكرة القارئ ، أو إلى عنايته باستئناف المطالعة . أما نظرياتي التي قدمتها فهي :

١- المرأة أضعف من الرجل جسمًا وأقل منه قبولاً للعلم ، وليس فيها هذا الضعف المزدوج بقصد إهباطها عن الرجل وإخضاعها له ، ولكن لكون وظيفتها الخاصة لا تقتضي أكثر من هذا القدر ، وهذه الحالة طبيعية فطرية بمعنى أنه لايتأتى أن تتصل المرأة مهما بذلت من المجهودات لأن تساوي الرجل ، لا جسمًا ولا إدراكًا .

٢- لكل كائن كمال خاص به ، وكمال المرأة ليس في صلابة عضلاتها ، ولا في اتساع دائرة معلوماتها ، بل في موهبة روحية متعت بها (أكثر من رجل)، وهذه الموهبة هي شعورها الحي الدقيق وإحساساتها

وعواطفها الرقيقة للدرجة القصوىٰ ، وفوق كل ذلك استعدادها لتضحية نفسها في سبيل الخير ، فلو نمت هذه المواهب عندها علىٰ حسب قواعدها الصحيحة لأغنتها عما يحتاج إليه الرجل من الزند المتين، والسيف الصقيل لتأييد حقوقه ، ولنمت بها هذه المواهب إلىٰ مكانة في الهيئة الاجتماعية تحنَىٰ لها الرءوس إجلالاً وتعظيمًا ، ولكن قضىٰ الله أن نُمو هذه المواهب لا يتم إلا إذا كانت تحت قيادة الرجل ، ولو فاقته فيها واستطاعت أن تأسره بها . ولكنها لا تأسره بها ، لأنها لو فعلت بطل مضاء سلاحها وزايلتها بهجة موهبتها ، فتقع فيما لا ترضاه لنفسها .

٣ـ إن هذا الكمال لا تناله المرأة إلا إذا كانت زوجة لرجل ، وأمًّا لأطفال تربيهم تربية صحيحة . ليس من باب إعطاء الوظيفة لصاحبها فقط ، بل إن نمو ملكاتها وتهذب مواهبها لا يتأتىٰ إلا بذلك ، لأنها خلقت لها جسمًا وروحًا .

٤ـ إن اشتغال المرأة في أشغال الرجال قتلٌ لمواهبها ، وإطفاءٌ لملكاتها ، وإذهابٌ لبهجتها ، ومدعاة إلىٰ هبوطها ، ومفسدة لتركيبها ، ومجلبة للخلل في أمتها .

وإن عمل المرأة الغربية خارج بيتها يعدها علماء بلادها جرحًا داميًا في فؤاد الأمة ، وأثرًا من آثار أسر الرجال للمرأة ، ويعملون بكليتهم علىٰ تضييق دائرته .

٥ـ إن الحجاب ضروري للنساء لصلاح النوع الإنساني كله على العموم ، وصلاحها على الخصوص ، لأنه ضمانة استقلالها ، وكفالة حريتها لا علامة ذلها وعنوان أسرها .

وقلنا : إنه لا يمنع كمالها ، بل يهيئه وأنه وإن كان له شيء من المضار كما هي طبيعة كل شيء فإن مزاياه وفوائده لا تقدر ، ومن أظهرها أنه يجبر المرأة إلى عدم تخطي دائرة وظيفتها الطبيعية التي فيها كل سعادتها ، ويوجهها لتنمية خصيصتها السامية التي هي سلاحها الوحيد في هذه الحروب الحيوية .

٦ـ المرأة في المدنية المادية ليست كاملة ، ولا سائرة إلى الكمال مهما ظهر لنا من روائها المزوّق ، وإن علماء بلادها يشكون من تلك الحالة ، ويسعون في إيقاف سيرها .

٧ـ إن طرق التعليم في كل ممالك أوروبا وأمريكا غير صالحة للنساء، بشهادة أصحابها أنفسهم .

٨ـ إن تعاليم الدين الإسلامي بالنسبة للمرأة موافقة لفطرتها تمام الموافقة ، فهي كالقالب التام التركيب لجميع خصائصها وملكاتها ، بمعنى أن تلك الخصائص لو نمت على حسب تلك التعاليم لبلغت المرأة المسلمة أعلى شأو يمكنها أن تبلغه ، بدون أن تتعدى حدودها الطبيعية .

٩ـ لا ينقص المرأة المسلمة لكي تبلغ أكمل نقطة يمكن أن يناله

جنسها إلا تعلُّمَ مبادئ العلوم الضرورية ليس إلا ، والخاصة في أمور دينها .

هذه تسع نظريات حصرتها في ثلاثة عشر فصلاً ، وقد أتيت في إثباتها بمقررات العلوم التجريبية ، وأقاويل أعظم عمراني العصر ، وما كتبه كبار أساطين المعلومات في دوائر المعارف ، والتزمت فيها أسلوب الفلسفة العلمية ما أمكن مع ما فيه من المشقة والصعوبة وذلك لغرضين شريفين :

أولهما : تقوية جانب أنصار الحجاب ، لكي يثبتوا في دفاعهم عنه للنهاية ، وليعرفوا بالعمل أن الحق في جهتهم ، وأن كل حركة في العالم مهما اختلفت مظاهرها متجهة لملاءمة الفطرة الإنسانية في كل شأن من شئون الحياة ، وأن الفطرة هي ما جاء به ديننا الحنيف ، وليعلموا أنهم ليسوا بمشخصي أدوار التأخر على مسارح التعصب الذميم بدون علم ولا فهم ، ولكنهم حفظة الفطرة السليمة في وسط هذا البدع الجديد ، وأنهم مهما كانوا متأخرين في مضمار الحياة المادية عن سواهم ، فليس ذلك لعلة عنصرية فيهم ، ولكنه لعرض يزول ببعض المجهودات البسيطة ، وأنهم من هذه الحيثية أصلح للبقاء من أصحاب تلك المدنية التي شوّهت وجه الإنسانية ، ومسخت الفطرة البشرية في كثير من جهاتها ، حتى سببت لذويها أمراضًا يستحيل بقاؤهم بها كبير زمن .

والغرض الثاني : هو إقناع إخواننا أضداد الحجاب بأننا لم ندافع عنه تعصبًا ، ولا خضوعًا لسلطان العادات ، ولا جريًا وراء محبة التقليد، ولكن انتصاراً للفطرة التي هي الدين الإسلامي ، وتعضيداً للحق الصراح الذي هو حظ المسلم من كل هذا العالم عساهم أن يكفوا عن دفع الحجاب ، إلى الدفاع عنه ويضموا أقلامهم إلى أقلامنا ، لنتفرغ جميعًا إلى مداواة الأعراض المرضية التي تؤلمنا ، ونؤدي بذلك أقدس واجب يفرضه علينا الضمير نحو الملة والأمة ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وتابعيه وسلم .

* * *

تنبيه

إننا لم نر بدّاً من تقسيم مؤلفنا هذا إلى جزئين ، جزء رددنا فيه على كل الشبه التي وردت على الحجاب وغيره من تقاليد المرأة المسلمة ، وجزء آخر خصصناه لرد كل الاعتراضات التي وجهت ضد المدنية الإسلامية .

والسبب الذي دعانا إلى بسط القول في المدنية لهذه الدرجة ، هو أن بعض الكتاب أساء فهم قولنا أنها كانت نموذج الكمال ، فظن أننا نعني بالكمال البشري ما يوازي اختراع مدافع المكسيم ، وبوم بوم ، وبنادق دم دم ، وقنابل الديناميت ، والليديت ، وغير ذلك من آثار الصناعة والزخرف ، لذلك رأينا أن نتكلم على ماهية الكمال البشري ، وماهية الغرض الذي خلق له الإنسان ، وماهية المدنية الفاضلة التي توصله إلى ذلك الكمال ، ثم درسنا أنواع المدنيات المختلفة ، فلم نجد منها ما يوصل الإنسان إلى سعادتيه الجثمانية والروحانية إلا الديانة الإسلامية بالحس ، وبشهادة كل معلومات البشر .

على أن هؤلاء الكتاب كانوا يكفوننا مؤنة الرد عليهم من هذه الوجهة البديهية لو كانوا اطلعوا على ما كتبناه في ١٨ جزءاً من (الحياة) ، وما كتبناه في كتابنا (تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدينة) ، وفي مؤلفنا (الحديقة الفكرية في إثبات الله بالبراهين الطبيعية) ، فإنهم لو اطلعوا على كل هذا لعلموا أننا دافعنا عن حقيقتنا بالعلم والحس ، وأننا لانجهل ناموس الترقي ، بل إننا أول من بسط الكلام فيه ، وطبقه على آيات القرآن الشريف ، هدانا الله جميعًا إلى ما فيه خير الأمة والملة آمين .

* * *

فهرست

الموضوع		الصحيفة
مقدمة		٥
الفصل الأول:	ما هي المرأة ؟	١٤
الفصل الثاني:	ما هي وظيفة المرأة الطبيعية؟	٢٠
الفصل الثالث:	هل المرأة تساوي الرجل جسميًا؟	٢٧
الفصل الرابع:	هل تتأتى حرية المرأة على الصفة التي يريدونها لها ؟	٣٧
الفصل الخامس:	هل للنساء أن يشاركن الرجال في الأعمال؟	٥٤
الفصل السادس:	هل في طبيعة المرأة ما يدل على تداخلها في الأعمال الخارجية ؟	٧٢
الفصل السابع:	هل يستمر تداخل النساء في أعمال الرجال في بعض البلاد ؟	٧٩
الفصل الثامن:	هل تحتجب المرأة عن الرجال ؟	٨٨
الفصل التاسع:	هل الحجاب علامة الأسر أو هو ضمانة الحرية؟	٩٤
الفصل العاشر:	هل الحجاب مانع كمال المرأة؟	١١٥
الفصل الحادي عشر:	هل يزول الحجاب ؟	١٢٨
الفصل الثاني عشر:	هل مرأة المدينة الماديةهي المرأة الكاملة؟	١٣٣
الفصل الثالث عشر:	أي أساليب التعليم أصلح لحال النساء؟	١٤٩
خاتمة:	نظرة إجمالية ؟	١٥٤
تنبيه		١٥٩